

مقالة السعي المكسّر



راكان آل عايض

1447 هـ | 2026 م

مقالة
السعي المقدس

« لقد خلق الله سبحانه الخلق ليعبدوه وحده، لا ليكونوا عبيداً لغيره. بعبارة أخرى؛ أي إنه خلقهم ليكونوا في سعي مستمر نحو التحرر من كل ما يجعلهم عبيداً لغيره، أي كي يكونوا في حالة ثورية متواصلة لا تنقطع على كل أشكال العبوديات والإكراهات البشرية.»

...

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

ذُو لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ
وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۗ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ
حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۗ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ۚ

(النحل: ٣٦).



بذلك وسعي في البحث منذ أمدٍ بعيد، محاولاً فهم ظاهرة جدّ عجيبة، وجدتها حتى في مجتمع الديمقراطية فيه قديمة عريقة؛ وهي ميلُ فئاتٍ من الناس إلى الخضوع شبه المطلق لشخصياتٍ معينة، سياسية أو اقتصادية أو دينية، رغم جو الحرية العام، وانعدام تعرضهم لأي نوعٍ من الضغوط المباشرة المحسوسة.

وقد قادني البحث الطويل إلى تفسيراتٍ مختلفة، غير أنها كلها لم تكن دقيقةً في فهم السبب الرئيس خلف تلك الظاهرة المحيرة. ثم تنبهتُ، بفضل الله تعالى، إلى آيةٍ في كتابه الكريم حملت التفسير الأدق والأوجز والأعمق، والإجابة الشافية الوافية الكافية؛ وهي قوله تبارك وتعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات: ٥٦).

إن الغاية إذاً، التي من أجلها خلق الله الخلق، هي أن يعبدوه (إنسهم وجنهم) وحده لا شريك له؛ وذلك بأن لا يكونوا عبيداً لغيره. وبعبارةٍ أخرى؛ أي إنه خلقهم ليكونوا في سعي مستمر نحو التحرر من كل ما يجعلهم عبيداً لغيره، أي كي يكونوا في حالةٍ ثوريةٍ متواصلةٍ -لا تنقطع- على كل أشكال العبوديات، والإكراهات البشرية. والعبادة في التعريف هي التسليم الكامل،

والانقياد التام، والطاعة المطلقة لله تعالى؛ وهذه محصورةٌ به
جل وعلا، لا يشاركه أحدٌ فيها؛ فيكون كلُّ من يطلب الطاعة
المطلقة -غيره سبحانه- مدّعيًا للألوهية، والمستجيبٌ له
والراضي عنه واقعًا في الشرك لا محالة.

لقد فهمتُ أن السبب الرئيس وراء تلك الظاهرة، التي تقود
الناس إلى الانقياد والسير الأعمى خلف أناسٍ مثلهم (أي
عبادتهم)، هو أن أولئك المنقادين قد أبوا أن يكونوا عبادًا لله،
فكان مصيرهم المحتوم أن يصبحوا عبيدًا لغيره جلَّ في علاه.

يقول عز من قائل في كتابه العزيز: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ
يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ
الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو
الْأَلْبَابِ} (الزمر: ١٧-١٨). «لما ذكر حال المجرمين ذكر حال
المنيبين وثوابهم، فقال: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا}
والمراد بالطاغوت في هذا الموضع، عبادة غير الله، فاجتنبوها
في عبادتها». [تفسير السدي].

إن طريق الحرية إذًا، يمر أولاً وأبدًا بإفراء الله تعالى بالعبادة،
التي تعني -كما ذكرنا آنفًا- التسليم الكامل، والانقياد التام،
والطاعة المطلقة له عز وجل.

وهذا ما يتبين لنا جلياً في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ... } (النساء: ٥٩)، فلم يُفرد أولي الأمر بطاعة خاصة، وإنما جعلها مشروطةً وتابعةً لطاعة الله ورسوله؛ بمعنى أن كل ما يصدر عن أولي الأمر المنتخبين (وهم منتخبون لأنه قال: "منكم" لا عليكم)، تكون طاعته مباحةً فقط في حال لم يخالف نصَّ الشرع المعظم، ومعارضته جائزةٌ وواردةٌ بدلالة باقي الآية: {..فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}، في دلالة قاطعةٍ لاحتمال النزاع، ولا يحتمل نزاعاً في جوهرٍ لا يملك فيه الناس حرية الطاعة أو العصيان.

ثم لنبحر في آي القرآن الحكيم؛ ولنتأمل عدد ما يفيض به هذا الكتاب الكريم من صور تقرير الحرية وإكبارها وصونها.

يقول تبارك وتعالى:

- { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۗ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } (البقرة: ٢٥٦)، «ومعناه أنه تعالى ما بنى أمر الإيمان على الإكراه والقسر، وإنما بناه على التمكن والاختيار.. وأنه تعالى لما بيّن دلائل التوحيد بياناً شافياً قاطعاً

للعذر، قال بعد ذلك: إنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل للكافر عذر في الإقامة على الكفر إلا أن يقسر على الإيمان ويجبر عليه، وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار الابتلاء، إذ في القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان». [مفاتيح الغيب، التفسير الكبير].

- {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۗ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا} (الكهف: ٢٩)، إن هذا الذي جئتمكم به هو الحق، فمن شاء فليؤمن به، ومن شاء فليكفر، على أن يتحمل كل فرد نتيجة اختياره والمصير الذي ينتظره.

وهذه الآية، وإن كان فيها تهديد صريح لمن يكفر بأن النار مصيره، إلا أنها تبقى نصًّا في تقرير حرية الاختيار. فحرية الاختيار لا تعني إعفاء المختار من تبعات خياراته، وإنما لكي تُقام عليه الحجة، ويكون للحساب بعد ذلك منطقيته وعدالته.

- {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۚ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ۗ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} (ق: ٤٥)، «نحن أعلم بما يقول هؤلاء المشركون من افتراء على الله وتكذيب آياته، وما أنت -أيها الرسول- عليهم بمسلط؛ لتجبرهم على الإسلام، وإنما بُعثت

مبليغاً، فذكَر بالقرآن من يخشى وعيدي؛ لأن من لا يخاف
الوعيد لا يذُكر. [التفسير الميسر].

- {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ
النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} (يونس: ٩٩)، «ولو شاء ربك لخلق
هذا الجنس البشري خلقة أخرى، فجعله لا يعرف إلا طريقاً
واحداً هو طريق الإيمان كالملائكة مثلاً. أو لجعل له استعداداً
واحداً يقود جميع أفرادها إلى الإيمان. ولو شاء كذلك لأجبر
الناس جميعاً وقهرهم عليه، حتى لا تكون لهم إرادة في اختياره.
ولكن حكمة الخالق التي قد ندرك بعض مراميها وقد لا ندرك،
دون أن ينفي عدم إدراكنا لها وجودها.

هذه الحكمة اقتضت خلقة هذا الكائن البشري باستعداد للخير
وللشر وللهدى والضلال. ومنحته القدرة على اختيار هذا الطريق
أو ذاك. وقدرت أنه إذا أحسن استخدام مواهبه اللدنية من
حواس ومشاعر ومدارك، ووجهها إلى إدراك دلائل الهدى في
الكون والنفوس وما يجيء به الرسل من آيات وبيانات، فإنه يؤمن
ويتهدي بهذا الإيمان إلى طريق الخلاص.

وعلى العكس حين يعطل مواهبه ويغلق مداركه ويستترها عن
دلائل الإيمان يقسو قلبه، ويستغلق عقله، وينتهي بذلك إلى

التكذيب أو الجحود، فإلى ما قدره الله للمكذبين الجاحدين من جزاء..

فالإيمان إذن متروك للاختيار، لا يكره الرسول عليه أحداً. لأنه لا مجال للإكراه في مشاعر القلب وتوجهات الضمير». [في ظلال القرآن].

{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينُ} (الكافرون: ٦)، «لَكُمْ دِينُكُمْ الَّذِي اعْتَقَدْتُمُوهُ، وَلَكُمْ جَزَاؤُكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ وَلِي إِسْلَامِي، وَلِي جَزَائِي عَلَى أَعْمَالِي». [أيسر التفسير].

{فَدَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُدَكَّرٌ* لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ} (الغاشية: ٢١-٢٢)، «فِعْظٌ-أيها الرسول-المعرضين بما أُرْسِلْتَ بِهِ إِلَيْهِمْ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَى إِعْرَاضِهِمْ، إِنَّمَا أَنْتَ وَاعِظٌ لَهُمْ، لَيْسَ عَلَيْكَ إِكْرَاهُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ». [التفسير الميسر].

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَلِمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} (يونس: ١٠٨)،

«قل-أيها الرسول-لهؤلاء الناس: قد جاءكم رسول الله بالقرآن الذي فيه بيان هدايتكم، فمن اهتدى بهدي الله فإنما ثمرة عمله راجعة إليه، ومن انحرف عن الحق وأصرَّ على الضلال

فإنما ضلاله وضرره على نفسه، وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين، إنما أنا رسول مبلغ أبلغكم ما أرسلت به». [التفسير المير].

- {مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء: ١٥)، «من اهتدى فاتبع طريق الحق فإنما يعود ثواب ذلك عليه وحده، ومن حاد واتبع طريق الباطل فإنما يعود عقاب ذلك عليه وحده، ولا تحمل نفس مذنبه إثم نفس مذنبه أخرى. ولا يعذب الله أحدًا إلا بعد إقامة الحجة عليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب». [التفسير المير].

- {إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۗ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ ۗ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ} (النمل: ٩١-٩٢)،

«قل -أيها الرسول- للناس: إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة، وهي "مكة"، الذي حرّمها على خلقه أن يسفكوا فيها دمًا حرامًا، أو يظلموا فيها أحدًا، أو يصيدوا صيدها، أو يقطعوا شجرها، وله سبحانه كل شيء، وأمرت أن أعبده وحده دون من سواه، وأمرت أن أكون من المنقادين لأمره، المبادرين لطاعته، وأن أتلو القرآن على الناس، فمن اهتدى بما فيه واتبع ما جئت

به، فإنما خير ذلك وجزاؤه لنفسه، ومن ضلَّ عن الحق فقل
-أيها الرسول-: إنما أنا نذير لكم من عذاب الله وعقابه إن لم
تؤمنوا، فأنا واحد من الرسل الذين أنذروا قومهم، وليس بيدي من
الهداية شيء». [التفسير الميسر].

- { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا } (المزمل: ١٩)، «إن هذه الآيات الناطقة بالوعد موعظة، فمن شاء
الانتفاع بها اتخذ إلى ربه سبيلا (بالطاعة) والتقوى والخشية».
[المنتخب في تفسير القرآن الكريم].

- { قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ ۗ قُلْ
إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا
ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } (الزمر: ١٤-١٥)، «قل -أيها
الرسول-: إني أعبد الله وحده لا شريك له مخلصًا له عبادتي
وطاعتي، فاعبدوا أنتم- أيها المشركون- ما شئتم من دون الله من
الأوثان والأصنام وغير ذلك من مخلوقاته، فلا يضرني ذلك
شيئًا. وهذا تهديد ووعيد لمن عبد غير الله، وأشرك معه غيره. قل
-أيها الرسول-: إن الخاسرين- حقًا- هم الذين خسروا أنفسهم
وأهليهم يوم القيامة، وذلك باغوائهم في الدنيا وإضلالهم عن
الإيمان. ألا إن خسران هؤلاء المشركين أنفسهم وأهليهم يوم
القيامة هو الخسران البين الواضح». [التفسير الميسر].

- {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} (الشمس: ٨-٧)، «إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة، مزدوج الاستعداد، مزدوج الاتجاه ونعني بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تكوينه (من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه) مزود باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال. فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر. كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء. وأن هذه القدرة كامنة في كيانه، يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة: {ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها}.. ويعبر عنها بالهداية تارة: {وهديناه النجدين}، فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد. والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك. ولكنها لا تخلقها خلقاً. لأنها مخلوقة فطرة، وكائنة طبعاً، وكامنة إلهاماً». انفي ظلال القرآن.]

- {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} (البلد: ٨-١٠)، «ليختار أيهما شاء، ففي طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أي النجدين. والنجد الطريق المرتفع. وقد اقتضت مشيئة الله أن تمنحه القدرة على سلوك أيهما شاء، وأن

تخلقه بهذا الازدواج طبقاً لحكمة الله في الخلق، وإعطاء كل شيء خلقه، وتيسيره لوظيفته في هذا الوجود». [في ظلال القرآن].

- {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} (الإنسان: ٣)، «فإن أخذ بالهدى كان شاكراً وإن أعرض كان كفوراً كمن لم يأخذ بإرشاد من يهديه الطريق فيأخذ في طريق يلقى به السباع أو اللصوص». [التحرير والتنوير].

- {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} (الشمس: ٩-١٠)، «والتركية: التزود من الخير والطاعة، والحرص على تطهير النفس من كل سوء، وقوله: {دَسَّاهَا} أي: نقصها وأخفاها بالمعاصي والآثام. وأصل فعل دَسَّى: دَسَسَ، فلما اجتمع ثلاث سينات، قلبت الثالثة ياء، يقال: دس فلان الشيء إذا أخفاه وكتمه». [الوسيط في تفسير القرآن الكريم]. لاحظ أن فعلي «زكاهها» و«دسهاها» عائدان إلى الإنسان ذاته؛ الخيار له، له مطلق الحرية في اختيار ما يشاء، على أن يتحمل تبعات اختياراته.

- {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ۗ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} (آل عمران: ٢٠)، «فإن جادلك -أيها الرسول- أهل الكتاب في التوحيد بعد أن أقمت الحجة عليهم فقل لهم: إنني أخلصت لله وحده فلا

أشرك به أحدًا، وكذلك من اتبعني من المؤمنين، أخلصوا لله وانقادوا له. وقل لهم ولمشركي العرب وغيرهم: إن أسلمتم فأنتم على الطريق المستقيم والهدى والحق، وإن توليتم فحسابكم على الله، وليس عليّ إلا البلاغ، وقد أبلغتكم وأقمت عليكم الحجة. والله بصير بالعباد، لا يخفى عليه من أمرهم شيء». [التفسير الميسر]. ليس على الرسول (ص) -وهو من هو- إلا البلاغ، فلا إكراه ولا عنف ولا قهر ولا إجبار على الإطلاق. وفي نهاية المطاف الله بصيرٌ بعباده، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو القاهر فوق عباده.

- {وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} (الرعد: ٤٠)، «فليس عليك (أيها الرسول) إلا تبليغ أحكام الرسالة، ولا يلزمك حصول الإجابة منهم لما بلغته إليهم {وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} أي: محاسبتهم بأعمالهم ومجازاتهم عليها، وليس ذلك عليك». [فتح القدير].

- {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۗ إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۗ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ} (الشورى: ٤٨)، «فإن أعرض هؤلاء المشركون -أيها الرسول- عن الإيمان بالله فما

أرسلناك عليهم حافظاً لأعمالهم حتى تحاسبهم عليها، ما عليك إلا البلاغ». [التفسير الميسر].

- {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (القصص: ٥٦)، إنك يا محمد لا تهدي (هداية التوفيق) من أحببت هدايته، ولكن الله يهدي من شاء الهداية وسعى لها، وهو أعلم بالمهتدين؛ أي طالبي الهداية الساعين لها.

- {مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} (المائدة: ٩٩)، «يبين الله تعالى أن مهمة رسوله صلى الله عليه وسلم هداية الدلالة والتبليغ، وبيد الله -وحده- هداية التوفيق، وأن ما تنطوي عليه نفوس الناس مما يُسرون أو يعلنون من الهداية أو الضلال يعلمه الله». [التفسير الميسر].

- {وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} (الأنعام: ٣٥)، «تلك سنتنا - يا محمد - فإن كان قد كبر عليك إعراضهم، وشق عليك تكذيبهم، وكنت ترغب في إتيانهم بآية. إذا.. فإن استطعت فابتغ لك نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء، فأتهم بآية!... إن هداهم لا يتوقف على أن تأتيهم بآية.

فليس الذي ينقص هو الآية التي تدلهم على الحق فيما تقول..
ولو شاء الله لجمعهم على الهدى: إما بتكوين فطرتهم من
الأصل على أن لا تعرف سوى الهدى - كالملائكة - وإما
بتوجيه قلوبهم وجعلها قادرة على استقبال هذا الهدى
والاستجابة إليه.

وإما بإظهار خارقة تلوي أعناقهم جميعاً. وإما بغير هذه من
الوسائل وكلها يقدر الله عليها. ولكنه سبحانه - لحكمته العليا
الشاملة في الوجود كله - خلق هذا الخلق المسمى بالإنسان،
لوظيفة معينة، تقتضي - في تديره العلوي الشامل - أن تكون له
استعدادات معينة غير استعدادات الملائكة.

من بينها التنوع في الاستعدادات، والتنوع في استقبال دلائل
الهدى وموحيات الإيمان، والتنوع في الاستجابة لهذه الدلائل
والموحيات. في حدود من القدرة على الاتجاه، بالقدر الذي
يكون عدلاً معه تنوع الجزاء على الهدى والضلال.

لذلك لم يجمعهم الله على الهدى بأمر تكويني من عنده،
ولكنه أمرهم بالهدى وترك لهم اختيار الطاعة أو المعصية، وتلقي
الجزاء العادل في نهاية المطاف.. فاعلم ذلك ولا تكن مما
يجهلونه. {ولو شاء الله لجمعهم على الهدى. فلا تكونن من

الجاهلين}. يا لهول الكلمة! ويا لحسم التوجيه! ولكنه المقام الذي يقتضي هول الكلمة وحسم التوجيه». [في ظلال القرآن].

- {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ^طفَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (الأنعام: ٤٨)، وما نرسل المرسلين إلا مبشرين لمن اختار الإيمان وسعى له، ومنذرين لمن اختار طريق الاستكبار والكفر. فمن آمن وأصلح فلا يحزن، وقد نال الأمن من الله جل في علاه. «وما نرسل الأنبياء إلا ليشيروا من يؤمن بالخير والثواب، وليحذروا من يكفر من العذاب. فمن آمن بدعوتهم وعمل صالحاً، فلا خوف عليهم من شر يصيبهم، ولا يحزنون على خير يفوتهم». [المختضب في تفسير القرآن الكريم].

- {قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ^حإِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ ^طيَقْضُ الْحَقُّ ^طوَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} (الأنعام: ٥٧)، «قل -أيها الرسول لهؤلاء المشركين-: إني على بصيرة واضحة من شريعة الله التي أوحاها إليّ، وذلك بإفراده وحده بالعبادة، وقد كذبتكم بهذا، وليس في قدرتي إنزال العذاب الذي تستعجلون به، وما الحكم في تأخر ذلك إلا إلى الله تعالى، يقض الحق، وهو خير من يفصل بين الحق والباطل بقضائه وحكمه». [التفسير الميسر].

- ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ { (الأنعام: ٦٦-٦٨)، «قوم النبي - صلى الله عليه وسلم - هم الذين كذبوا بما جاءهم به - وهو الحق - ومن ثم انفصل ما بينه وبين قومه وانبتت؛ وأمر أن يفصلهم فيعلن إليهم أنه ليس عليهم بوكيل، وأنه يتركهم لمصيرهم الذي لا بد آتٍ، وأمر أن يعرض عنهم فلا يجالسهم متى رأهم يخوضون في الدين، ويتخذونه لعباً ولهواً، ولا يوقرونه التوقير الواجب للدين، وأمر - مع ذلك - أن يذكرهم ويحذرهم ويبلغهم وينذرهم، ولكن على أنه وإياهم - وهم قومه - فريقان مختلفان، وأمتان متميزتان.

فلا قوم ولا جنس ولا عشيرة ولا أهل في الإسلام.. إنما هو الدين الذي يربط ما بين الناس أو يفصم.. وإنما هي العقيدة التي تجمع بين الناس أو تفرق. وحين يوجد أساس الدين توجد تلك الروابط الأخرى. وحين تنفصم هذه العروة تفصم الروابط والصلات». [في ظلال القرآن].

- ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ٤١)، «وإن أصروا على

تكذيبك - أيها الرسول - بعد وضوح الأدلة على نبوتك - فقل لهم: إن لي جزاء عملي، ولكم جزاء عملكم كيفما كان، وإنني مستمر في دعوتي، وأنتم لا تؤاخذون بعلمي، وأنا لا أؤاخذ بعملكم، فافعلوا ما شئتم وسيجازي الله كلا بما كسب». [المختضب في تفسير القرآن الكريم].

- {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} (هود: ١٢)، «بلغهم -أيها الرسول- ما أوحيت به إليك؛ فإنه ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك. والله على كل شيء حفيظ يدبر جميع شؤون خلقه». [التفسير الميسر].

- {إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} (النحل: ٣٧)، ما عليك، أيها الرسول، إلا البلاغ، ومهما حرصت على هداية من اختاروا طريق الضلال، وزهدوا في طلب الحق وطريقه والسعي إليه، فإن الله لا يهديهم، وما لهم من ناصرين من دون الله. فالله أضلهم بمعنى أنهم اختاروا الضلال، فلم يمنعهم الله حقهم في الاختيار، حتى وإن كان الضلال اختيارهم. فلا جبر ولا إكراه، وإنما المسألة هي أن من اختار طريق الضلال فلن يحول الله بينه وبين ذلك الطريق، ومن سعى طلبًا للحق والهداية كان الله في عونته.

فكان هذا معنى أنه تعالى لا يهديهم؛ أي ليست بمعنى أنه أجبرهم على الضلال، إنما بمعنى أنه لم يصادر حقهم في اختيار أن يضلوا.

لنتنبه إلى أن كل هذه الآيات التي أوردتها كانت فيما يتعلق بحرية الاعتقاد/الضمير/الاختيار، التي هي أقدس حرية؛ لأن العقيدة أهم ما لدى الإنسان في العموم. ولذا فإن الحرية شرط صحة الاعتقاد وشرط صحة الأعمال. قال تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (البقرة: ٢٥٦)؛ فقدم الكفر بالطاغوت (كل أشكال وصور الإكراه والإجبار) على الإيمان به جل وعلا، لأن الإيمان به هو عين الحرية ورأسها وتاجها. فيكون المؤمن حرًا بالضرورة، ولا يُقبل على هذا الأساس ممن آمن بالله إلا أن يكون حرًا مستقلاً لا يخضع لغيره من البشر.

وفي الجانب السياسي كذلك؛ فالحرية من أهم شروط إسلامية الكيان السياسي؛ بمعنى أنه لا يمكن لنا وصف كيان سياسي ما بأنه إسلامي وقد قام على غصب وإكراه وقهر، ولذا كان السعي من أجل تفكيك الكيان السعودي الغاصب -وما شابهه

من كيانات غضب وتوريث وإقطاع- جزءًا من هذا السعي المقدس نحو مجتمع العبادية لله.

وقد تعمقنا وفصلنا في موضوع إسلامية الكيان السياسي وشروطها، في كتابنا [كتاب: المرجع الأعلى في الإسلام: نحو إعادة مركزية وهيمنة القرآن]، وأوضحنا بما قدرنا الله عليه ما يفي بغرض إيصال الفكرة الجوهرية. ولأن للحرية في الإسلام كل هذه المكانة العظيمة المبجّلة المكرّمة المقدّسة؛ فقد كان السعي من أجلها سعيًا مقدّسًا، لأنه سعي في سبيل الله.. في سبيل قيمه العليا.

[III]

ثم بعد ما تقدّم؛ فلا بد لي من أن أتناول هنا اعتراضًا لطالما ردّده كهنة السلاطين، وممن يتبعهم من أتباع مُغيّبين ومُجهّلين؛ وبالذات الذين يتصدرون للدفاع عن الكيان السعودي الغاصب. وهو تحريمهم معارضة الطواغيت الغاصبين هناك وفي كل مكان، باتكائهم على آية طه، وهي قوله تبارك وتعالى أمرًا موسى وهارون عليهما السلام، بعد أن قال - اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ - {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ} (طه: ٤٤)، معتقدين أن فيها ما يؤيد ما ذهبوا إليه من تحريم المعارضة، أو جعلها مجرد نصح سري يُرسل إلى "ولي الأمر"،

فينظر فيه وقد لا ينظر، ويستجيب له ويتفاعل معه وقد لا يستجيب ولا يتفاعل معه، والمؤكد أنه لا يستجيب ولا يعيره أدنى اهتمام أو قيمة، وذلك لأن الطاغية لا تستجيب لأي مطلب يحته على أن يستحيل إلى شخص آخر ليس بطاغية.

بعبارة أخرى: الطاغية -في كل زمانٍ ومكان- لا يمكن ولا بأي حال أن يقبل مطلقاً بمطلبٍ -سرياً كان أو غير سري- يستحث فيه آدميته ويحدّ ولو قليلاً من طاغوتيته. وهذا الفهم الذي ذهبوا إليه للآية (من أنها تحرم المعارضة أو تسرّبها أو تجعلها نصحاً خاصاً أو تمييزاً للدين والحقيقة) هو فهمٌ شيطاني بلا ريب، وتحريفٌ صريح لها، واجترأؤها من سياقها الكامل الذي وردت فيه.

فلنتأمل إذاً ذلكم السياق، ثم لنطرح بعض الأسئلة المتعلقة به بعد ذلك.

قال الله تعالى: {أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ

عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمْ يُمُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا
 الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ
 الْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ
 * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ
 السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا وَارْعَوْا
 أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا
 نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ * وَلَقَدْ آرَيْنُهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا
 فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ { (طه: ٤٢-٥٦).

أولاً: من هما موسى وهارون؟

ثانياً: ما الذي كانا يحملانه معهما إلى فرعون؟

ثالثاً: لماذا ذهبنا للقاء فرعون أصلاً؟

رابعاً: ما معنى القول اللين؟

خامساً: هل القول اللين هو عين ما أرسلهما الله به، أم قالوا شيئاً
 آخر؟

سادساً: وإذا كان القول اللين هو عين ما أرسلهما الله به، فما
 الذي قاله لهما وأوصلاه إلى فرعون؟

سابعاً: ثم بعد ذلك كله، هل آمن فرعون أم كذب وتولى؟

والجواب على هذه الأسئلة جميعها، لمن تأمل الآيات الكريمة، متيسر وواضح: أما موسى وهارون، فقد كانا رسولين أرسلهما رب العالمين؛ ومعنى ذلك أنهما محمَّلان برسالة، وإلا فما معنى أنهما رسولا رب العالمين؟! إذاً، هناك رسالة.

ثم إنهما قد أُرسلا إلى فرعون لسبب واضح: (أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ)، فكان الطغيان مبرراً -ليس لمجابهته وحسب- بل ولإرسال الرسل؛ فلم يُرسل موسى وحده، بل معه هارون أخوه، وهو رسول كذلك، للذهاب إلى من طغى وتجبر وإنذاره بالعذاب الإلهي الآتي لا محالة.

ولن يرعوي الطاغية عن غيه وطغيانه، ليس لأنه مجبر حيلةً على ذلك، وإنما لأن الطاغية لا يصير طاغية إلا وقد تجاوز كل خطوط الرجعة مختاراً؛ ولذا فقله تعالى: (لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ) ليس معناه أن ذلك الرجاء من جهة الله سبحانه وتعالى؛ فالله يعلم حتمًا أن فرعون لن يستجيب للرسول المرسلين، ويعلم جل وعلا مصير فرعون وكل فرعون يأتي بعده. وإنما هو لئلا يذهب موسى وهارون وهما يائسان، فاقدين لأي ذرة من الأمل؛ فكان أن حفزهما بذلك الرجاء. «فالداعية الذي ييأس من اهتداء أحد بدعوته لا يبلغها بحرارة، ولا يثبت عليها في وجه الجحود والإنكار. وإن الله ليعلم ما يكون من فرعون.

ولكن الأخذ بالأسباب في الدعوات وغيرها لا بد منه. والله يحاسب الناس على ما يقع منهم بعد أن يقع في عالمهم. وهو عالم بأنه سيكون. فعلمه تعالى بمستقبل الحوادث كعلمه بالحاضر منها والماضي في درجة سواء» [سيد قطب، في ظلال القرآن]. مع أنهما كانا خائفين من أن يعاجلهما فرعون بالرد العقابي عليهما ويتجبر، فلم يقل سبحانه إنه لن يفعل، وإنما اكتفى بأن طمأنهما أنه معهما يسمع ويرى؛ ذلك لأنه يعلم مسبقاً، جل وعلا، رد فعل فرعون عليهما. «والفرط هو التسرع بالأذى للوهلة الأولى، والطغيان أشمل من التسرع وأشمل من الأذى. وفرعون الجبار يومئذ لا يتحرج من أحدهما أو كليهما. هنا يجيئهما الرد الحاسم الذي لا خوف بعده، ولا خشية معه: (قال: لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى).

إنني معكما.. إنه القوي الجبار الكبير المتعال. إنه الله القاهر فوق عباده. إنه موجد الأكوان والحيوات والأفراد والأشياء بقوله: كن. ولا زيادة.. إنه معهما.. وكان هذا الإجمال يكفي. ولكنه يزيدهما طمأنينة، ولمسا بالحس للمعونة: (أسمع وأرى..) فما يكون فرعون وما يملك وما يصنع حين يفرط أو يطغى؟ والله معهما يسمع ويرى؟... ثم إيضاح لموضوع رسالتهم: {فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم}.. ففي هذه الحدود كانت

رسالتهما إلى فرعون. لاستنقاذ بني إسرائيل، والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد... ثم استشهاد على صدقهما في الرسالة: {قد جئناك بآية من ربك} تدل على صدقنا في مجيئنا إليك بأمر ربك، في هذه المهمة التي حددناها.

ثم ترغيب واستمالة: {والسلام على من اتبع الهدى}: فلعله منهم يتلقى السلام ويتبع الهدى. ثم تهديد وتحذير غير مباشرين كي لا يثيرا كبرياءه وطغيانه: {إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى}.. فلعله لا يكون ممن كذب وتولى! هكذا ألقى الله الطمأنينة على موسى وهارون. وهكذا رسم لهما الطريق. ودبر لهما الأمر.

ليمضيا آمنين عارفين هاديين» [سيد قطب، في ظلال القرآن]. ولكن فرعون، في نهاية المطاف، كذب وأبى، فاستحق العذاب الإلهي في الدنيا، وأشدّه في الآخرة أيضًا، هو ومن تبعه: {وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ * وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْنُونَ عَنَّا نَصِيًّا * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ * وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَازِنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوْلَمْ تَكُ

تَأْتِيَكُمْ رَسُولُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۖ قَالُوا فَادْعُوا ۗ وَمَا دُعَاءُ
الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ
الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ { غافر: ٤٥-٥٢ }، وقال تعالى: {وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ
فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقَدِّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورَدُهُمُ
النَّارَ ۖ وَيَبْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ } (هود: ٩٦-٩٨).

إذًا، فلما كان موسى وهارون رسولي رب العالمين، والغرض من
إرسالهما إلى فرعون وملئه إقامة الحجّة وردّه عن طغيانه وغيه،
كان المنهج الإلهي الحكيم أن يُنذر فرعون أولاً، وتقام عليه
الحجّة قبل أن يتخطفه العذاب؛ عذاب الدنيا ثم عذاب
الآخرة.

وكان ذلك هو اللين المقصود؛ أي الإنذار والتحذير، فلا يُعذّب
ويؤخذ قبل الإنذار والبيان وإقامة الحجّة عليه.

وكان القول «اللين» بالتحديد هو ما قاله الله لهما ليقولاه لفرعون
ولمن تبعه؛ وقد ذكره رب العالمين في نفس السياق، فقال:
{فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ
قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَن آتَبَعِ الْهُدَىٰ * إِنَّا قَدْ
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيْنَا مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ } (طه: ٤٧-٤٨).

وهذا المستوى من الخطاب لا يتنافى مع اللين مطلقاً؛ فاللين المقصود لا يعني تحريف الحق أو قول ما يضاده أو يميّعه أو يشوّهه.

والرسول الخاتم محمد، عليه الصلاة والسلام، قد لان مع المؤمنين به أيضاً في المدينة، فقال تعالى واصفاً ذلك: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} (آل عمران: ١٥٩)، ولكن ليس معناه أنه لم يبلغهم الدين كما أنزله الله عليه، أو أنه جاملهم فيما يكرهون من الدين؛ ولا يعني أنه ميّع الحقيقة والرسالة باسم التليين، حاشاه.

وإنما المعنى الأساس فيها هو التذكير والتحذير والتعليم، في سكينته وصبر وحلم وهدوء وتدرج، وبشكل غير مباشر وغير صدامي أول الأمر؛ إذ يسقط منطقياً كل فرصة للتحاور والنصح والدعوة بين اثنين، كل منهما يلعن الثاني ويود قتله.

لا بد من فسحة للإندازر، وذاك هو اللين، لا التميع أو الركون إلى الظالمين؛ لأن من ركن إليهم كان هذا مصيره المحتوم: {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} (هود: ١١٣). ولعظم الظلم وكبره

وفداحته عند الله تبارك وتعالى، كان الجهر بالسوء من القول مباحًا لمن تعرض للظلم، لقوله عز من قائل: {لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا} (النساء: ١٤٨).

فليس الأمر، إذًا، كما يشتهي عبيد السلاطين من الكهنة محرّفي الدين، الذين لم يقرؤوا في القرآن كله سوى هذه الآية (فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا..) التي لا يفتنون يكررونها على أسماع العوام المستغفلين، وقد بتروها من سياقها؛ وذلك ليشرعنوا سكوتهم عن الظلم والكفر والشر والإفساد الذي يرتكبه الطواغيت المجرمون، أعداء الله والرسول. وقد تناسوا أن الله قال في نفس الآية (..لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) فهل سألو أنفسهم عن دلالة ذلك؟

والجواب هو أن اللين ليس إلا المرحلة الأولى الافتتاحية التي لا تتوقف مجابهة الطغيان عندها؛ ولذا فإن الطاغية، إن لم يتذكر ولم يخش، كان لا مفر من التصعيد المستمر معه حتى مراحل الصدام المباشر.

فليحذر، إذًا، من يستخدمون هذه الآية معتقدين أنها تنفعهم في شرعنة الخضوع والاستسلام للطغاة؛ من أنها، في الحقيقة، دعوة لبدء العمل الثقافي الدعوي الثوري المقاوم للطغاة، كل

الطغاة، بالوسائل السلمية، ممثلة بالكلمة الحرة، وأنها مجرد افتتاحية فقط لمسار تصاعدي قادم؛ بمعنى أنها، إن لم تحقق غايتها، فإن التصعيد بعدها واجب وحتمي، وكلما زاد تعنت الطاغية زاد احتمال الصدام المادي معه، وذلك عذاب الله له، يجريه على أيدي خلقه، فضلاً عن عذاب الآخرة، وهو أعظم.

الخلاصة: إن القول اللين الذي قاله موسى وهارون لفرعون، بالحرف، هو: {..إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَن اتَّبَعَ الْهُدَىٰ * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ} (طه: ٤٧-٤٨).

فهو إبلاغ أولاً بأنهما رسولان من رب العالمين، ثم أمر له بأن يرسل -أي يحرر- معهما بني إسرائيل وألا يعذبهم، مصحوباً بآية من رب العالمين، واستمالة له بقولهم: (وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَن اتَّبَعَ الْهُدَىٰ)، ثم أكمل الرسالة بالتهريب غير المباشر بأن العذاب على من كذب وتولى؛ ومعنى ذلك: أنك يا فرعون، إن كذبت، فمصيرك العذاب العظيم من رب السماوات والأرض، لا إله إلا هو. وقد كذب فرعون، فكان مصيره معروفاً، وكذا مصير كل الطواغيت: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي

أَمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ
وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ
خَلَقْنَا آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِّ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ { (يونس: ٩٠-٩٢).

فلم ينفعه إيمانه بعد فوات الأوان، بعد أن أحدث في الأرض
الطاغیان والإفساد والإجرام، وكفر برسالة الرحمن، وكان آية لمن
خلفه وعبرة.

والذي نفهمه أن هذا مصير كل الطاغين أيضاً من بعده؛ فلم
يحدث أن استحال طاغية من كونه طاغية إلى أن يكون إنساناً
عبداً لله، متساوياً مع بقية الخلق، فلا يعلو عليهم ولا يعتدي.

ثم هنالك نقطة أخيرة هامة فيما يتعلق بالقول اللين؛ وهي أن
دعوتنا إلى أن يكون الأمر شورى بين الناس ليس فيها فظاظة ولا
سب ولا معاندة، وإنما هي قول ذات ما أمر به المولى سبحانه:
{.. وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ..} (آل عمران: ١٥٩)، و{.. وَأَمْرُهُمْ
شُورَى بَيْنَهُمْ..} (الشورى: ٣٨)، و{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ..} (النساء: ٥٩). فقال
(مِنْكُمْ) أي باختياركم، لا مفروضين عليكم. وثم كم مضى من
الزمن ونحن، وغيرنا ممن سبقنا، يخاطب آل سعود الغاصبين
بالعودة عن طغيانهم وردّ الأمر إلى أهله؟ منذ زهاء ثلاثة قرون،

ولم يُجدِ ذلك معهم شيئاً. ومع ذلك فما زال خطابنا هو ذات ما شرعه المولى سبحانه، فلم نقل سوى إن حكم الناس رغماً عن إرادتهم، وتوارثهم ونسبتهم إليكم كما المتاع، مما لا يقره الشرع ولا يرتضيه المشرع الحكيم. وأن مطلبنا الأساس تمثل في أن: «ردّوا الأمر إلى أهله»، ولكنهم أبوا واستكبروا وبطروا، وزادوا إجراماً وعلوّاً.

إن السعي نحو أن يكون الناس عباداً لله، بألا يكونوا عبيداً لغيره، هو السعي المقدس الذي نعنيه؛ وهو سعي نحو قيم الإسلام من حرية ومساواة وعدل وشورى وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر ونصرة للمستضعفين ووقوف في وجه الظالمين، إلخ.

إن هذا هو ما نعتبره السعي المقدس الذي لا يبالي الإنسان إن مات في سبيله؛ لأنه سبيل الله. ولأن جوهر توحيد الله يتمثل في الحرية، وذلك بالكفر بكل إله سوى الله، فشهادة أن «لا إله إلا الله» إنما تعني، في جوهرها، أنه لا مستحق للتسليم الكامل والانقياد التام والطاعة المطلقة سوى الله، تبارك وتعالى، وحده، وأن كل من ادّعى لنفسه ذلك الحق فهو متأله كافر بالله، ومن سلّم له بذلك فقد أشرك بالله وضلّ ضلالاً بعيداً: {إِنَّ اللَّهَ لَا

يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا { (النساء: ١١٦) .

[III]

ثم هناك اعتراض آخر وردني من أحد عبّاد الطاغوت؛ وذلك على كتابي: [كتاب: مفهوم الملك في القرآن؛ بين التمكين المشروط الموت والتخليع المطلق الدائم]، والذي أثبتنا فيه، بنصوص قرآنية كثيرة، أن الملك العام هو شورى بين الأمة، وأن الملك الوارد في القرآن ليس هو المملوكية الوراثية التي عرفتھا البشرية بعد ذلك، وأن ملك سليمان، عليه السلام، لم يكن ملكًا وراثيًا؛ فلم يرثه بدلالة قوله: { قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا.. }، ولم يُورثه هو لمن بعده بدلالة قوله في نفس الآية: { ..لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي أَنْ يَكُونَ مِثْلَ مَا كُنْتَ } (ص: ٣٥)، وأن الذي ورثه سليمان من والده داود، عليه السلام، كان العلم والمكانة لا السلطة والرياسة لقوله تعالى: { وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ } (النمل: ١٦) .

وأثبتنا أن المملوكية الوراثية مما يتعارض بشكل صارخ مع الأمر الإلهي بالشورى، التي جعلها المولى سبحانه من أهم صفات

المؤمنين بالله، فجعلها بين الاستجابة له وإقامة الصلاة والإنفاق من الرزق؛ وذلك لعظيم مكانتها، وأنها من صفات المؤمنين بالضرورة. أي بمعنى: أن تكونوا مؤمنين بالله مستجيبين له يعني أن يكون الأمر بينكم شورى، بينكم كلكم، رجالاً ونساءً، لا تمييز ولا تفرقة، لا على أساس عرق ولا جنس ولا لون أو اختلاف لسان، فقال: {لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}، وقوله تعالى أمراً نبيه الكريم بأن يشار المسلمون من حوله، ويذكره تعالى بأنه، بفضل رحمة الله، لان معهم، ولو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ۗ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۗ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۗ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } (آل عمران: ١٥٩).

وفي موضع آخر يقول تعالى: {وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۗ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ } (الأنفال: ٦٢)، وفيها إشارة واضحة إلى أهمية الجماهير المؤمنة ودورها المحوري، حتى إن الله جعلها سبباً في نصرته، صلى الله عليه

وسلم. وكان دورها بارزاً بهذا القدر لأن الأمر كان شورى بينهم، ولم يكن يستبد النبي بشيء من الأمر فيما لم ينزل به نص قرآني؛ إذ طالما كان الأمر يتعلق بشيء مسكوت عنه، فالأصل أن الأمر فيه شورى، وكان ذلك هو الحال في وقته، صلوات ربي وسلامه عليه إلى أبد الأبدین.

وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ مَالِكُ الْمَلِكِ وَالْمَلِكُ الْحَقُّ: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} (المؤمنون: ١١٦)، {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا} (الإسراء).

وَأَنَّ كُلَّ مَلِكٍ غَيْرِ مَلِكِ اللَّهِ هُوَ مَقِيدٌ وَمَوْقُوتٌ وَعَرْضَةٌ لِلنَّزْعِ فِي أَيِّ لِحْظَةٍ؛ فَاللَّهُ يُوْتِي الْمَلِكَ وَهُوَ يَنْزِعُهُ، وَهَذِهِ سَنَةٌ ثَابِتَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ لَا تَتَخَلَّفُ: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلِيُّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (آل عمران: ٢٦). وَأَنَّ الْإِيْتَاءَ لَيْسَ مَعْنَاهُ الرِّضَا الْإِلَهِيُّ بِالضَّرُورَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ الْإِبْتِلَاءُ وَالْإِمْتِحَانُ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَجْرِي عِبْرَ السِّنَنِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي وَضَعَهَا اللَّهُ لِهَذَا الْكُونِ وَمِنْ فِيهِ، لَا التَّدْخُلَ الْإِلَهِيَّ الْمُبَاشِرَ كَمَا يَتَّصِرُ الْبَعْضُ، لَا سِيَّمَا فِي عَصْرِ مَا بَعْدَ خْتَمِ النَّبُوَّةِ. وَأَنَّ قِصَّةَ طَالُوتَ، الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مُلْكًا عَلَيْهِمْ، كَانَ بِطَلْبِ مَنْهُمْ

هم، وليس مفروضاً عليهم. وجاء في الكتاب: «في قصة طالوت، حين عينه نبيهم ملكاً عليهم، لم يسكت القوم، بل اعتراضوا وقالوا: {..أَتَنَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ} قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (البقرة: ٢٤٧).

وهذا الاعتراض يدل على وجود مناخ من الحرية والفسحة من جهة القدرة على التعبير، الذي يصل إلى هذا الحد، ويؤكد أن طالوت لم يكن متغلباً وارثاً للملك، بل جاء باصطفاء إلهي حصري وخاص، ولم يشكّل قاعدة لحكم لاحق، ولم يكن من طبقة غنية ولا سلالة تدعي الأحقية في الملك. وقد جاء بطلب من القوم أصلاً، ثم اعتراضوا بعد ذلك، بدليل قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مَن بَعِدَ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَّهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ} قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ

وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ { (البقرة: ٢٤٦-٢٤٧).

فلم يكن طالوت ملكاً وراثياً، إذاً، بل بعثه الله ملكاً باصطفاء
خاص، في سياق خاص، وفي زمن لم تُختم النبوة فيه بعد، مما
يبطل علاقة الملك في القرآن بالملوكيات الوراثية السلالية التي
عرفتها البشرية لاحقاً، وأنَّ بعث طالوت ملكاً قد كان بطلب
من بني إسرائيل في الأساس. ومع ذلك اعترضوا عليه..

فقال ذلك العبد الذليل لي: إن الله عز وجل هو من أعطى آل
سعود الملك، وذلك دليل رضاه عنهم وتأييده لهم، ولو لم يكن
راضياً لما حدث أن أوتوا الملك!

ثم استشهد بالآية الكريمة: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي
رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ
قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۗ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ
الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (البقرة: ٢٥٨)، معتبراً إياها دليلاً يسند ما قاله!
ولست أدري، والله، كيف يستدل هؤلاء بهذا الشكل المشوه
المقلوب، ولست، والله، أدري كيف يفكرون، إن كانوا
يفكرون!

فقلت له: ومن قال لك إن هذا الإيتاء معناه الرضا من الله، أو أنه قائم على أساس من الشرعية؟ ثم من قال لك، من الأصل، إن هنالك شيئاً في هذا الوجود يخرج عن قوانين وسنن هذا الوجود التي وضعها رب العالمين، ومجموع الاحتمالات البشرية الممكنة التي يعلمها كلها وقبل حدوثها؟ ومعنى ذلك أن حصول أحد ما على السلطة ليس معناه، بالضرورة، رضا الله، أو أن حصوله ذلك تم بطرق مشروعة! ولكن لا يعني أيضاً أنه أوتي من عند غير الله!

ثم إن الدنيا قد جعلها الله للكافر والمؤمن سواءً ومتاعاً، لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (البقرة: ١٢٦)، وقوله: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كَلَّا نُمَدُّ هُوَآءَ وَهُوَآءٌ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} (الإسراء: ١٨-٢٠)،

وقال تبارك وتعالى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ} وهو القويُّ العزيز * مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ} وَمَنْ

كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ {
(الشورى: ١٩-٢٠).

فالله يمد المؤمن والكافر على السواء؛ والدنيا دار امتحان
وابتلاء، والناس فيها مخيرون لا مسيرون. فكما أنه قد يستولي
على السلطة غاصب، فهذا لا يعني أن ذلك حق له أو أن الله
راضٍ عنه، ولكنه، في ذات الوقت، ليس شيئاً خارجاً عن إرادة
الله، أو أن يكون غيره هو من آتاه؛ وإلا صار الكون كوناً غير
الله، أستغفر الله.

وبعبارة أخرى: لا يمكن أن نقول إنه استولى على السلطة رغماً
عن إرادة الله، جل وعلا، وإنما ضمن ما آتاه الله للناس، من
الأصل، من حرية اختيار، والتي قد يُساء استخدامها، كما
يفعل الغاصبون المتسلطون على الشعوب، والتي على أساسها
يكون الحساب والعقاب أو الثواب يوم الدين.

وعليه؛ فإنه كما للغاصب الحرية التي مكنته من مخالفة أمر الله
(بالشورى في الأمر كله)، فلغيره حق، بل واجب، مقاومة ذلك
الغاصب بكل الصور والوسائل المشروعة الممكنة. وكما رضيتم
بحكم الغاصبين باعتباره مما آتاه الله لهم، مستدلين بقوله
سبحانه: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ
الْمُلْكَ..} (البقرة: ٢٥٨)، وقوله: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي

الْمُلْكُ مَنْ تَشَاءُ.. { (آل عمران: ٢٦)؛ فدعوا من يقاومون الغاصبين وشأنهم، واطمئنوا؛ فإن هم نجحوا ونزعوا الملك من أولئك الغاصبين، فلترضوا بذلك النزع باعتباره جزءاً من ذات الآية، وبالتالي إرادة الله: { وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ۗ يَدُ الْخَيْرِ مُرْسَلَةٌ عَلَيْكَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }.

أي: كما رضيتم بالإيتاء باعتباره إرادة الله، فلا تجزعوا عند النزع لأنه أيضاً بإرادة الله، ولا تأبهاوا إلى من يسعون في سبيل ذلك؛ فكلا الحالتين مما سمح به الله جلّ وعلا. وللإنسان في نهاية المطاف الخيار: إما أن يخضع للغضب والظلم وتحريف الدين، وإما أن يرفع رأسه عالياً، مقاوماً مجاهداً، وراداً على المحرّفين والمفسدين والباغين ظلماً في الأرض.

لقد خلق الله الناس كلهم أحراراً، وحمّلهم الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها، قال الذي قوله الحق: { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۗ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } (الأحزاب: ٧٢). وتلك الأمانة التي حملها الإنسان هي حرية الاختيار، فكان مقتضاها الحساب، وبالتالي العقاب أو الثواب { لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ

غَفُورًا رَّحِيمًا} (الأحزاب : ٧٣)؛ فمن اختار أن يؤمن ويحسن
فله الحسنى ، ومن اختار الكفر وأساء فله العذاب .

ولكن في كلا الحالتين الله هو الخالق والمُوجِد الأصلي لكل
شيء وواضع قوانين الكون وخالق الإنسان العالم به وبكل
الاحتمالات التي قد ترد على قلبه وفي خلقه، وهذا معنى الإيتاء
من حيث الأصل؛ فالله هو المعطي الذي آتى كل ذلك
وأوجده .

غير أن هذا لا يعني بحال أن الاحتمالات التي يختارها
الإنسان كلها تدل على رضا الله أو موافقة لمنهجه الذي أنزله
في كتبه؛ فقد يختار أن يكفر، وبذلك فالله هو الذي آتاه
إمكانية أن يكفر، لكن الكفر لا يرتضيه، والحساب عليه يوم
الحساب . فالدنيا دار امتحان وبلاء، وإذا ما وقع الإكراه
والإجبار انتفى مسوغ الحساب، لذا كانت الحرية شرطاً أساسياً
مقدساً تقره كل آيات الكتاب العزيز .

وجاء في الظلال عن حمل الإنسان لأمانةٍ أبت عن حملها
الجبال، تفسير بديع: «إن الإنسان الذي يعرف الله بإدراكه
وشعوره. ويهتدي إلى ناموسه بتدبره وبصره. ويعمل وفق هذا
الناموس بمحاولته وجهده. ويطيع الله بإرادته وحمله لنفسه،
ومقاومة انحرافاته ونزغاته، ومجاهدة ميوله وشهواته.. وهو في كل

خطوة من هذه الخطوات مريد. مدرك. يختار طريقه وهو عارف إلى أين يؤدي به هذا الطريق!

إنها أمانة ضخمة حملها هذا المخلوق الصغير الحجم، القليل القوة، الضعيف الحول، المحدود العمر؛ الذي تناوشه الشهوات والنزعات والميول والأطماع.. وإنها لمخاطرة أن يأخذ على عاتقه هذه التبعة الثقيلة. ومن ثم {كان ظلوماً} لنفسه {جهولاً} لطاقته. هذا بالقياس إلى ضخامة ما زج بنفسه لحمله. فأما حين ينهض بالتبعة.

حين يصل إلى المعرفة الواصلة إلى بارئه، والاهتداء المباشر لناموسه، والطاعة الكاملة لإرادة ربه. المعرفة والاهتداء والطاعة التي تصل في طبيعتها وفي آثارها إلى مثل ما وصلت إليه من سهولة ويسر وكمال في السماوات والأرض والجبال.. الخلائق التي تعرف مباشرة، وتهتدي مباشرة، وتطيع مباشرة، ولا تحول بينها وبين بارئها وناموسه وإرادته الحوائل. ولا تقعد بها المثبطات عن الانقياد والطاعة والأداء.. حين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة، وهو واع مدرك مريد. فإنه يصل حقاً إلى مقام كريم، ومكان بين خلق الله فريد. إنها الإرادة والإدراك والمحاولة وحمل التبعة.. هي هي ميزة هذا الإنسان على كثير من خلق الله. وهي هي مناط التكريم الذي أعلنه الله في الملائكة،

وهو يسجد الملائكة لآدم. وأعلنه في قرآنه الباقي وهو يقول: {ولقد كرمنا بني آدم}.. فليعرف الإنسان مناظ تكريمه عند الله. ولينهض بالأمانة التي اختارها؛ والتي عرضت على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها» [سورة طه، في ظلال القرآن].

ثم إن الآية (آية البقرة: ٢٥٨) لا تتحدث عن شخص مؤمن يمكن الاستدلال بقصته والاستئناس بها على ما ذهبوا إليه من تحريف وتخريف، بل هو كافر جاحد مستكبر (قيل هو النمrod، ولكن لا دليل من القرآن عليه).

لذا فإن هذه الآية ليست دليلاً على القائلين بالحق الإلهي للملوك، والذي لا أساس له في الإسلام ولا بأي حال؛ بل جاء الإسلام فهدم الإمبراطوريات، وأنهى زمن الورايات، وأسقط المتجبرين العالين في الأرض.

والملك العام (مألاً وسلطاناً)، - كما قررنا وأثبتنا- في التصور الإسلامي، هو حق عام تتوزعه جماهير الأمة (شورى بينهم)/، مشاع بينهم، وليس حقاً إلهياً لأحد بعينه أو فئة أو أسرة أو سلالة، بل هو حق للجماعة الإنسانية المؤمنة دون تمييز أو تفرقة. فيحرم حصره في سلالة أو فئة بعينها، ومن يفعل ذلك فهو -عملياً- كافر بحكم الله تعالى في شأن السلطة والرياسة

الذي قرر أن يكون (شورى بينهم)؛ بين كل جماهير الأمة في كل تجمع لهم في أي بقعة من بقاع الأرض.

وأكثر من ذلك، فإننا نفهم من سياق الآية أن هذا الذي حاج إبراهيم، عليه السلام، في ربه إنما فعل ذلك لما أوتيه من ملك؛ فكأن السلطان الذي كان يملكه هو ما دفعه نحو الغرور والتأله. ففي هذا ذمٌ للملك المطلق، كما في قوله، على لسان ملكة سبأ: {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً..}، فجاء التأييد الإلهي لكلامها في ذات الآية: {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} (النمل: ٣٤).

ولذا فالآية (آية البقرة: ٢٥٨) تسلط الضوء على حقيقة أن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة لا محالة، وأن الإنسان، ما لم يع أنه عبد لله، محدود وناقص وعاجز، لطغى واستكبر وتجبى وتأله {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} (العلق: ٦-٧)، ومصير المستكبرين والظالمين معروف لا يجهله ذو نظر وبصيرة.

إذًا، نفهم الآية ليس بأن الملك الذي أُعطيها هذا الكافر كان تعيينًا إلهيًا، وإنما هو إيتاء بمقتضى حرية الاختيار التي آتاها الله الناس عند خلقهم. وإلا لو فهمت حسبما ذهب إليه المنحرفون

من عبدة الطواغيت، لكان شرط الحصول على ذلك الملك هو الكفران والجحود والعتوّ، وهذا ما لا يقول به عاقل.

فلينته، إذًا، هؤلاء الدجاجلة عن تحريف الدين وقلب الحقائق وتشويه الوعي المسلم، الذي ما فتئ يتعرض لحمالات التشويه والإضلال والتشويش والتليس منذ وفاة الرسول الأعظم، صلوات الله عليه وسلامه، وحتى يوم الناس هذا.

والخلاصة: أنه لو كان المقصود من الآية أن كل إيتاء للملك يحمل في طياته رضا وتعيينًا إلهيًا، لحصل التناقض الصارخ أمامنا؛ فكيف يرضى الله عمن ادّعى الربوبية، وكفر به سبحانه، وطغى واستكبر؟

[IV]

لم تتوقف قط محاولات كهنة السلاطين لتحريف الدين عند تحريم معارضة الحاكم، والإسرار له بالنصيحة، بل خطوا خطوة أخرى نحو الهاوية بقولهم إن طاعة ولي الأمر من طاعة الله، أي إن طاعة ولي الأمر وطاعة الله شيء واحد؛ فمن أطاع ولي الأمر فقد أطاع الله، وعليهم من الله ما يستحقون لما عاثوه من تحريف وتزييف، وقلبٍ لحقائق الأمور. وقد ردنا عليهم قبل ذلك في غير ما مكان، وقلنا إن في الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ۖ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝ (النساء: ٥٩)، ثلاثة أمور لا تفهم الآية دونها:

أولاً: أن كلمة «أطيعوا» وردت في الآية مع الله ومع رسوله فقط.

الثاني: أن طاعة الله لا تتم إلا عبر رسوله، لذلك ورد الأمر بطاعته كونه المحمّل بالرسالة والناطق بها، ولأنه هو حامل الرسالة؛ فلا يخرج مطلقاً عنها؛ فكانت طاعته في حياته (ص) طاعةً للقرآن، وبعد وفاته يبقى القرآن هو محل الطاعة.

الثالث: أنه لم يرد فعل «أطيعوا» مع أولي الأمر؛ ما يعني أن الطاعة هي لله ورسوله في الأصل، وأن هؤلاء (أولي الأمر) ليسوا هم محل الطاعة، وإنما ما يصدر عنهم موافقاً -غير مخالف- لرسالة رب العالمين، وبشرط أن يكونوا منا، لا علينا؛ أي باختيارنا لا مفروضين علينا. فالانتخاب إذاً شرط شرعيتهم بعد تقيدهم بشرع الله (طاعة الله ورسوله).

ثم هم جماعة من الناس، وليسوا فئة أو سلالة بعينها دون غيرها؛ فقال: «أولو الأمر» لا «ولي الأمر»، ما يؤكد حقيقة النظام السياسي الإسلامي بأنه نظام جماهيري شعوري تشاركي

تعددي، يقوم على المجالس الشورية المنتخبة، وليس وراثياً ولا كهنوتياً؛ فلا توريث فيه كما كيانات الغصب والتوريث في العالم الإسلامي، وعلى رأسها الكيان السعودي الفاشي، ولا يحكمه من يدعون أنهم وسطاء بين الناس وربهم، كما ولاية الفقيه في إيران، والتي لا تمت للإسلام بأي صلة، هي الأخرى. فيكون أولو الأمر هنا هم أولئك الذين اختارتهم الجماهير في كل إقليم أو في كل تجمع لجماهير الأمة، للنيابة عنهم في المجالس الشورية والجماهيرية، وفق عقد بين الأمة وممثليها، وهي البيعة؛ تنص على الالتزام بشرع الله أولاً، وما تختاره جماهير الأمة ثانياً؛ وإن حدث النزاع فالمرجع هو كتاب الله، الذي تخضع له كل الرؤوس.

وقلنا إن مجرد الإقرار باحتمالية حدوث نزاع بين الأمة وممثليها (أولي الأمر)، فإن ذلك أكبر دليل على مساحة الحرية المتاحة والمتصورة داخل النظام السياسي الإسلامي. وفي الموضوع الثاني الذي وردت فيه عبارة (أولي الأمر)، {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدْعَاؤُهُمْ وَكَوَرُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّمَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ...} (النساء: ٨٣)، فقد جاءت بنفس الصياغة الدالة على أنهم من الناس، مختارين مستخلصين؛ لا مفروضين غاصبين وراثيين. وفي هذا الموضوع

الثاني أتى فيها تفصيل إضافي متعلق بالمختصين بشؤون المجتمع العسكرية، وفي ذلك ما يشير إلى أهمية وجود لجان تخصصية داخل كل مجلس شوري جماهيري منتخب، من مختصين، كلٌّ في مجاله.

إذاً، النظام السياسي الإسلامي هو جماهيري شوري، نيابي ومباشر في الوقت نفسه؛ من حيث إن هناك نواباً، نعم، ولكن هناك جماهير فاعلة أيضاً ومراقبة، وتأمراً بالمعروف وتنهياً عن المنكر، وتعارض وتقاوم أي انحراف أو فساد يقع.

ولأن الأمر كذلك، كان طبيعياً أن يكون من بين بنود البيعة ما يحدد مدداً واضحة لفترات تمثيل الجماهير؛ فلا يمكن أن يكون شخص ما ممثلاً لمجموعة ما طوال العمر، ولا لجيل كامل أو واحد؛ وإنما المنطق يقول، والتجربة البشرية من حولنا تقول، إن فترتين هما الأنسب، كل فترة لا تتجاوز خمسة أعوام. وهذا من شأنه تجديد الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، والحفاظ على الروح الثورية لدى الأمة مشتعلةً متوثبةً.

يتبين لنا مما تقدم مدى التحريف الشنيع، والتزييف المريع، والتلبس الرهيب الذي مارسه ويمارسه كهنة الطواغيت في كل مكان، وعلى وجه الخصوص منهم كهنة الكيان السعودي الوهابي الغاصب.

إن هذا النظام السياسي الذي نستنتجه من جمع آيات كتاب الله سبحانه في مسألة الحكم والسلطة (الملك العام) ينسجم كل الانسجام مع مفهوم العبادة الذي هو غاية الخلق، والذي كان هو التفسير الوحيد الجدير لفهم ظاهرة عبادة الناس لخلقٍ مثلهم من الناس.

إن إعراض الإنسان عن أن يكون عبدًا لله لن يجعله إلهًا ولا خارقًا، وإنما يقوده لاتباع هواه وشهواته، أو يقوده إلى أحد من الخلق يتملق له ويسجد، لا فرق.

وإن من يعتقد أن الحل لإصلاح هذه وكل المجتمعات وتحريرها والرقي بها يكمن فقط في تبني النظام الديمقراطي، فهو الكفيل بتحرير الناس من هذا الارتداء في أحضان الطواغيت.. من يعتقد ذلك فهو واهم وسادر في ظلاله. ذلك لأن الحرية ما لم تنبع من داخل الإنسان فإنه لن يكون حرًا، ولو وُضع في أرقى النظم الديمقراطية في العالم.

وهذا ما لا تخطئه العين؛ فكم من عبيدٍ متزلفين متذللين داخل قُبب برلمانات عالمية يمتد عمر الديمقراطية فيها لقرون، ومع ذلك لم يُجد ذلك فيهم شيئًا؛ والسبب أن النفوس لم تتحرر بعد، ولن تتحرر سوى بسبيل واحدة لا غير: أن تُخلص العبادة لله وحده؛ فلا طاعة ولا انقياد تامين مطلقين سوى لله الواحد

الأحد؛ حتى الوالدين، فقد حرّم الله طاعتهما في معصيته سبحانه وتعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ* وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (لقمان: ١٤-١٥)، فلا طاعة مطلقة للوالدين، وإنما بالمعروف طاعتهما.

فإذا ما تقرر هذا الأساس وترسّخ، ستخرج للإنسانية أجيال جديدة تكون الأجدار بقيادة النهضة الإسلامية القادمة بإذنه تعالى.

[V]

إن مقتضى تحقق عبادة الله عملياً يتمثل في تحرر النفس الإنسانية، وتوقها لكسر الأغلال والقيود من عادات وتقاليد تحط من كرامة الإنسان، وتحد من انطلاقتها، وتكبح طاقاته، وتجعله متقوقعاً مغلقاً على نفسه وبيئته.

ومقتضاها كذلك أن يقف الإنسان المسلم سدّاً منيعاً أمام كل محاولات تحريف الدين وتجييره لخدمة الغاصبين والمفسدين والعنصريين.

ولنأخذ على سبيل المثال والتأمل دعوة بعض المنحرفين عقديًا ونفسيًا، الغارقين في مستنقع العنصرية والعصية الجاهلية الأولى، ممن ينادون بـ«حق قريش» في الحكم، وأن الأمة المسلمة (بكل أعراقها) لا بد أن تخضع لفرد من قريش، وإلا فالضلال مصيرها وغضب الله ورسوله نازل -لا بد- عليها!

وهذا من أقذر وأحط وأخس وأكفر صور تشويه هذا الدين، التي يمارسها العنصريون العرب، الذين يحاولون احتكار الإسلام وتصويره كما لو أنه دين للعرب وحدهم، كافرين بقوله تبارك وتعالى في كل هذه الآيات الكريمة:

- {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (الأعراف: ١٥٨)،

«قل -أيها الرسول- للناس كلهم: إني رسول الله إليكم جميعًا لا إلى بعضكم دون بعض، الذي له ملك السموات والأرض وما فيهما، لا ينبغي أن تكون الألوهية والعبادة إلا له جل ثناؤه، القادر على إيجاد الخلق وإفئائه وبعثه، فصدّقوا بالله وأقروا بوحدانيته، وصدّقوا برسوله محمد ﷺ النبي الأمي الذي يؤمن بالله وما أنزل إليه من ربه وما أنزل على النبيين من قبله، واتبعوا

هذا الرسول، والتزموا العمل بما أمركم به من طاعة الله، رجاء أن توفقوا إلى الطريق المستقيم». [التفسير الميسر].

- {..وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} (النساء: ٧٩)، «وقد بعثناك - أيها النبي - لجميع الناس رسولا من الله تبلغهم رسالة ربك، وكفى بالله شاهدا على صدقك فيما تبلغه عنه، بما آتاك من أدلة وبراهين». [المختصر].

- {بِأَيِّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} (النساء: ١٧٠)، «فهو رسول إلى العالمين. إلى الناس كافة - بعدما غبرت الرسالات كلها خاصة بقوم كل رسول - فلم يكن بد من تبليغ عام في ختام الرسالات، يبلغ إلى الناس كافة: {لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل}. ولو لم تكن هذه الرسالة عامة للناس كافة لكان للناس - ممن سيأتون من أجيال وأمم - حجة على الله. فانقطعت هذه الحجة بالرسالة العامة للناس وللزمان، وكانت هي الرسالة الأخيرة». [في ظلال القرآن].

- {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ

مَّمَّا تُشْرِكُونَ} (الأنعام: ١٩)، «فكل من بلغه هذا القرآن من الناس، بلغة يفهمها، ويحصل منها محتواه، فقد قامت عليه الحجة به، وبلغه الإنذار، وحق عليه العذاب، إن كذب بعد البلاغ». [في ظلال القرآن].

- {قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} (يونس: ١٠٨)، «فهو الإعلان الأخير للناس، والكلمة الفاصلة، والمفاصلة الكاملة، ولكل أن يختار لنفسه. فهذا هو الحق قد جاءهم من ربهم. {فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها}.. وليس الرسول موكلاً بالناس يسوقهم إلى الهدى سوقاً، إنما هو مبلغ، وهم موكولون إلى إرادتهم وإلى اختيارهم وإلى تبعاتهم، وإلى قدر الله بهم في النهاية». [في ظلال القرآن].

- {وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} (يوسف: ١٠٤)، «إن الذي أرسلت به من القرآن والهدى عظة للناس أجمعين يتذكرون به ويهتدون». [المير].

- {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} (الأنبياء: ١٠٧)، «ولقد أرسل الله رسوله رحمة للناس كافة ليأخذ بأيديهم إلى الهدى، وما يهتدي إلا أولئك المتهيئون المستعدون. وإن كانت الرحمة

تتحقق للمؤمنين ولغير المؤمنين.. إن المنهج الذي جاء مع محمد - صلى الله عليه وسلم - منهج يسعد البشرية كلها ويقودها إلى الكمال المقدر لها في هذه الحياة.

ولقد جاءت هذه الرسالة للبشرية حينما بلغت سن الرشد العقلي: جاءت كتاباً مفتوحاً للعقول في مقبل الأجيال، شاملاً لأصول الحياة البشرية التي لا تتبدل، مستعداً لتلبية الحاجات المتجددة التي يعلمها خالق البشر، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير. ولقد وضع هذا الكتاب أصول المنهج الدائم لحياة إنسانية متجددة. وترك للبشرية أن تستنبط الأحكام الجزئية التي تحتاج إليها ارتباطات حياتها النامية المتجددة، واستنباط وسائل تنفيذها كذلك بحسب ظروف الحياة وملابساتها، دون اصطدام بأصول المنهج الدائم. وكفل للعقل البشري حرية العمل، بكفالة حقه في التفكير، وبكفالة مجتمع يسمح لهذا العقل بالتفكير». [في ظلال القرآن].

- {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (الحج: ٤٩)، «قل - أيها الرسول -: يا أيها الناس ما أنا إلا منذر لكم مبلغ عن الله رسالته». [المير].

- {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} (الفرقان: ١)، «أي: الله الذي نزل القرآن فارقاً بين الحق

والباطل. على عبده: أي محمد صلى الله عليه وسلم. ليكون
للعالمين نذيراً: أي ليكون محمد صلى الله عليه وسلم نذيراً
للعالمين من الإنس والجن أي مخوفاً لهم من عقاب الله وعذابه
إن كفروا به ولم يعبدوه ويوحده». [أيسر التفاسير].

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ} (سبأ: ٢٨)، «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدٌ إِلَّا إِلَى قَوْمِكَ
خَاصَّةً، وَإِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَى الْخَلْقِ جَمِيعًا، مُبَشِّرًا مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ
بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ، وَالجَنَاتِ الْعَالِيَاتِ، وَمُنذِرًا مَنْ عَصَاهُ بِالْعَذَابِ
الْأَلِيمِ.. كَافَّةً لِّلنَّاسِ - إِلَى النَّاسِ جَمِيعًا». [أيسر التفاسير].

- {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى
الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا} (الفتح: ٢٨). إنه دين العدل
والحرية والرحمة والمساواة والإخاء، ونصرة المستضعفين، وردع
الظالمين، والإحسان إلى عموم المخلوقات؛ فهو دين الحق بلا
ريب، والله مظهره على الدين كله بالحجة والبرهان، وكفى به
شهيذاً.

وقد كان لنا وقفة صارمة في كتابات سابقة عن هذا الموضوع
بالذات (نعني موضوع محاولة حصر الحكم فيمن نسل من
قريش، ومحاولة تصوير الإسلام كما لو أنه دين للعرب
وحدهم)؛ غير أننا هنا نود أن نعرف السبب لهذا الانحراف،

ولن يصعب ذلك إذا ما كنا قد سلّمنا بمعنى قوله: {وَمَا خَلَقْتُ
الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات: ٥٦)، أي: إلا ليكونوا
أحراراً عابدين لي، لا عبيداً خاضعين لغيري، متحررين من كل
العصبيات، متجردين لدين الله وحده، غير متحيزين سوى
للحق، والحق وحده... فلو أن هؤلاء قد تحرروا من عصبياتهم
الجاهلية العنصرية القبلية المنتنة، وتجردوا للعقيدة الصافية
المحضة الحققة، لما تجرؤوا على كتاب الله ودينه بالدعوة إلى
ما يتعارض كلياً مع كل آيات الكتاب الحكيم، ويجعل من
رسالة الله للعالمين مقصورة على قبائل في جزيرة العرب، بل إن
ذلك كفر بالرسالة ذاتها، وحرب على نشرها ودعوة الناس إليها.

ومثالٌ آخر على الانحراف هو ذلك الذي سوّغ للمحرّفين
المفترين على الله أن يشرعنوا الملكية الوراثية، معتبرينها النظام
الإسلامي الصحيح، وهو ما يقول به ويؤكده باستمرار كل كهنة
المعبد الوهابي، أو على الأقل لا يرون أنها تتعارض مع قطعيات
الشريعة، هكذا يقولون! وهذا جهلٌ فاضح، وتلبيسٌ صريح،
وافتراءٌ على شرع الله الحنيف.

وإلا، لو كان في كلامهم شيء من الصحة، فما العمل إذًا
بقوله تعالى أمرًا نبيه الخاتم: {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ

وَشَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ...}، قال: (هم) أي جماهير الأمة، وكذلك في وصفه لجماعة المؤمنين في كل زمان ومكان بأن أمرهم هو دوماً {شورى بينهم}؛ أمر من؟ أمرهم، ومن هم؟ إنهم جماهير الأمة. شورى بين من؟ بينهم؛ أي جماهير الأمة كذلك. مما يدل دلالة قاطعة على أن النظام السياسي الإسلامي نظاماً جماهيري بالقطع، ولا يحتمل أي شكل آخر فيه ما يتعارض مع كونه جماهيريًا. والوراثية ضديدة الشورى والجماهيرية بلا ريب.

ثم أين نذهب بكل آيات الأحكام والتكاليف التي تقوم بها الدولة، والتي جاءت بصيغة الجمع، مخاطبة جماهير الأمة، لا فردًا فوق الأمة، ولا سلالة دون غيرها من الأمة؟

وأين نذهب بالآية التي يرددونها في كل مكان، وهي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...} فلماذا لم يقل: ولي الأمر عليكم؟ والسبب واضح كما سبق أن بيّنا، وهو لأن النظام السياسي الإسلامي نظاماً مجالسي جماهيري محض، لا يقبل بحال أن تستأثر به فئة أو سلالة أو أسرة دون غيرها، أو حتى حزب أو تيار دون غيره.

الأمر إذاً مشاع بين الأمة، وكذا المال العام، الذي هو مال الله في الأصل والحقيقة، ونحن مستخلفون فيه {آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ} فالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا

لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ} (الحديد: ٧) لِنُمْتَحِنَ: هل نحسن التصرف فيه على الوجه الذي يرضاه الله سبحانه أم لا، فلا يكون في النظام الاقتصادي في المجتمع المسلم (مجتمع العبادية لله) كنزٌ للمال ولا احتكارٌ ولا ربا ولا غش، ولا يكون المال دولة بين الأغنياء دون الفقراء، وغيرها من مبادئ النظام الاقتصادي الإسلامي التشاركي التكافلي.

فأين الواقع التعيس الذي تعيشه أمتنا، والدينُ المحرّف الحاكم، من التصور الإسلامي الراقي الصافي الذي تخلفنا عنه وتفقهنا إلى الورا؟

كيف لمسلم وعى كل هذه الحقائق الإسلامية أن يقبل بأنظمة حكم تتوارث الناس كما المتاع، وتجردهم من أقدس المقدرات؛ نعي حرية الاختيار؟ إنها لكبيرة، بل هي الخروج عن دائرة الإسلام وكفر صريح بكل تعاليمه. وكيف لمسلم يقرأ قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} (النساء: 1)، وقوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات: ١٣)، أن يدّعي فضل جنس على

جنس، وقوم على قوم، لمجرد اختلاف العرق أو اللون أو اللسان؟!

«لو تذكر الناس هذه الحقيقة: {يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً}، لتضاءلت في حسهم كل الفروق الطارئة، التي نشأت في حياتهم متأخرة، ففرقت بين أبناء "النفس" الواحدة، ومزقت وشائج الرحم الواحدة، وكلها ملابسات طارئة ما كان يجوز أن تطغى على مودة الرحم وحقها في الرعاية، وصلة النفس وحقها في المودة، وصلة الربوبية وحقها في التقوى.

واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلاً باستبعاد الصراع العنصري، الذي ذقت منه البشرية ما ذاقت، وما تزال تتجرع منه حتى اللحظة الحاضرة؛ في الجاهلية الحديثة، التي تفرق بين الألوان، وتفرق بين العناصر، وتقيم كيانها على أساس هذه التفرقة، وتذكر النسبة إلى الجنس والقوم، وتنسى النسبة إلى الإنسانية الواحدة والربوبية الواحدة.

والحقيقة الأخرى التي تتضمنها الإشارة إلى أنه من النفس الواحدة {خلق منها زوجها}.. كانت كفيلاً - لو أدركتها البشرية - أن توفر عليها تلك الأخطاء الأليمة، التي تردت فيها، وهي

تتصور في المرأة شتى التصورات السخيفة، وتراها منبع الرجس والنجاسة، وأصل الشر والبلاء.

وهي من النفس الأولى فطرة وطبعاً، خلقها الله لتكون لها زوجاً وليث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، فلا فارق في الأصل والفطرة، إنما الفارق في الاستعداد والوظيفة. ولقد خبطت البشرية في هذا التيه طويلاً. جردت المرأة من كل خصائص الإنسانية وحقوقها، فترة من الزمان، تحت تأثير تصور سخيف لا أصل له. فلما أن أرادت معالجة هذا الخطأ الشنيع اشتطت في الضفة الأخرى، وأطلقت للمرأة العنان، ونسيت أنها إنسان خلقت لإنسان، ونفس خلقت لنفس، وشطر مكمل لشطر، وأنهما ليسا فردين متمثلين، إنما هما زوجان متكاملان. والمنهج الرباني القويم يرد البشرية إلى هذه الحقيقة البسيطة بعد ذلك الضلال البعيد». [سيد قطب، في ظلال القرآن].

نتساءل: كيف يقول شخص يدعي الإسلام ويعي أن الأمر (أي الملك العام: السلطان والمال) في الإسلام شورى ومشاع بين جماهير الأمة، أن يعترض على أمر الله، قائلاً: لا، الأمر ليس شورى بين الناس ولا يصح، بل هو حكر على قريش ومن نسل

منها؟! أيعقل هذا؟! إن هذا عناد صريح لشرع الله وكفر به،
وتعالٍ على بقية الناس، وعنصرية محضة، ونتانة صِرفة يبرأ
الإسلام منها.

إن السعي المقدس إذًا نحو مجتمع العبادية لله، يتطلب الكفر
بكل هذه الأفكار والعقائد الجاهلية، وكذا كل الروايات التي
قوّلت النبي ما لم يقله وأذته، حتى بعد وفاته. وإن كان أحد
يقول: فما العمل في الروايات التي يستند إليها أولئك
العنصريون، كرواية: «الأئمة من قريش» وما كان على منوالها؟
فالجواب واضح: إن مرجعنا الأعلى هو القرآن وحده، وهو الذي
تكفل الله بحفظه {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}
(الحجر: ٩)، وما تعارض معه ركلناه في سلة المهملات.

وإن كان الأمر بالاعتماد على الروايات؛ ففيها ما يساعد حتى
الملاحدة ليتهموا القرآن بأنه ناقص، والنبيّ بأنه كان موهومًا
ومجنونًا، لا بل وحاول الانتحار مرات ومرات، وأنه يأتي زوجه
وهي حائض، ويدور على نسائه في الليلة الواحدة بالغسل
الواحد، ويطأ الجواري، ويسبي ويقتل ويكره الناس... إلخ، مما
حفلت به كتب أعداء هذا الدين، التي جمعوا فيها كل ما
يسيء إلى من قال عنه رب السماوات والأرضين: {وَإِنَّكَ لَعَلَى

خُلِقَ عَظِيمٍ { (القلم: ٤). فليست كتب السِّيرِ والروايات إِذًا بشيء يُعد مرجعًا في دين الله.

وإلا فما فائدة هذا الكتاب الذي أنزله الله تعالى على رسوله، وأمره بتبليغه، وبذل -بنفسي وأبي هو وأمي- في سبيل ذلك الغالي والنفيس، بما في ذلك نفسه الشريفة، صلوات ربي وسلامه عليه؟ فكان بذلك أسوة حسنة لكل من كان يرجو الله واليوم الآخر: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} (الأحزاب: ٢١).

[VI]

وانظر مبلغ ما وصلت إليه عنصريتهم وتنفيرهم الناس من دين الله؛ فقالوا إن لقراءة الرسول (من بني هاشم وبني عبد المطلب، بل منهم من قال قريش كلها) الخمس من الغنيمة، وذلك ليًّا لمعنى الآية في قوله تعالى: {وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفَاقُ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الأنفال: ٤١)؛ والآية واضحة.

أولاً: الخطاب موجه للجماعة ككل، وليس لفرد بعينه؛ فما غنيمتكم (أي الجماعة المسلمة، المقاتلين منهم خاصة)،

والحديث كله هنا عن الغنيمة التي تكون بعد النصر في القتال على المحاربين المعتدين، وليس كما هو معمول به لدى الطائفة الشيعية حيث يُعطى الخُمس سنويًا (كما لو أنه جزء من الزكاة) للمراجع الكهنوتية.

ثانيًا: طالما الخطاب للجماعة، والمعني في المقام الأول هم المقاتلون، دلّ ذلك على أن المقصود منها هو أن كل واحد من المقاتلين عليه أن يجعل خُمس ما غنمه لله والرسول (وتُفهم هنا بمعنى ما فيه خدمة دين الله والدعوة إليه في كل مكان).

ثالثًا: ثم ذوي القربى ممن يعيّلهم كل واحد من أولئك المقاتلين (أي قربي الإنسان الذي غنم، وقد لا تكون قربي دم، وإلا فماذا عن المتبنى مثلًا؟ إذا القربي المعاشية بالدرجة الأولى، وهي المسالمة أيضًا، وإلا فما العمل مع القريب المحارب؟ أيعطى أم لا؟)، واليتامى عمومًا، والمساكين، وابن السبيل. ولا يوجد في القرآن ما يحرم على أقارب النبي ﷺ قبول الصدقة، وهذا لمن قال إن الخُمس لهم كان بسبب تحريم أخذهم الزكاة أو الصدقة.

وينبغي أن نتأمل ولو قليلاً في هذه النقطة (المتعلقة بحصة ابن السبيل، وهو المسافر الذي لا مال له يكفيه ليصل إلى مقصده)؛ ففي المجتمع الإسلامي (مجتمع العبادية لله) حتى

عابر السبيل له حق في مال الأمة، فتخيّلوا عظمة وإنسانية
ورحمة هذا الدين وعالميته!

ولكن الجاهليين فهموا الآية من خلال نظرتهم القبلية العنصرية
الضيقة، فقالوا إن قوله (ولذي القربى) أي هم قرابة الرسول عيناً؛
وهو فهم لا يمكن أن يصدر إلا عن تأثر بالبيئة القبلية
الجاهلية، وعاداتها الضاغطة، وعصبياتها التنتة.

وأما قوله تعالى في آية الشورى: {...قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا
الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...} (الشورى: 23)، فهي الأخرى واضحة إن
لم تكن قراءتها خاضعة للعقلية القبلية الجاهلية.

وقد وردت لها وجوه تفسيرية كثيرة، غير أن أقربها للصواب هو
المعنى التالي في نظرنا: قل لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من
خير أجرًا، اللهم إلا (والاستثناء للسؤال لا للأجر، لأنه (ص) لا
يطلب الأجر من الناس مطلقا، ولذا كان فائدة ما يسأله هنا من
مودة في القربى عائد نفعه للرسالة ومن تبعها من الناس، لا
لشخصه هو) أن تودّوني في قرابتي منكم؛ فلا تعترضوا طريق
دعوتي ومن تبعني.

وأما لو كان المعنى ما ذهب إليه المنحرفون من أن حب قرابة
الرسول -ويعنون بهم كل أقاربه- هو المقصود في الآية؛ لصادموا

آيات القرآن بعضها ببعض؛ فمنهم المشركون الذين حاربوه وناصبوه العدا، وقد حرّم ربي مودة المشركين وتوليهم. لذا، فالفهم الأرجح، والذي ينسجم مع مجموع آيات الكتاب الكريم، يجعلنا نميل إلى أن المعنى هو ما جاء في تفسير الرازي مثلاً: «{قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ} على ما أدعوكم إليه {أَجْرًا إِلَّا} (وهنا استثناء من السؤال - كما قلنا- لا من الأجر، لأن طلب النبي للأجر منتفٍ) أن تودوني لقرابتي منكم، والمعنى أنكم قومي وأحق من أجنبي وأطاعني، فإذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القريبى، ولا تؤذوني، ولا تهيجوا عليّ... وقول آخر ذكره الحسن وهو: أن تتوددوا إلى الله وتقتربوا إليه بالطاعة والعمل الصالح».

[مفاتيح الغيب، التفسير الكبير]. وكما للأستاذ الإسلامبولي تفسير له وجاهته، ويحسن بنا هنا أن نأتي به كما هو وإن كان نصه طويلاً بعض الشيء، يقول: «استغل مفهوم أهل بيت النبوة^[١] كثيراً في التاريخ، وأعطى مضموناً إلهياً، وقامت الحروب على

[١] لا بد أن أشير هنا إلى أن كلمة "أهل" في اللسان يُقصد بها المعاشيون للشخص، والمترطون به في حياته؛ ومفهوم أهل البيت في قوله تعالى: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا لِلَّهِ لِيُدْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسُ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهَّرَكُمْ تَطْهِيرًا} (الأحزاب: ٣٣)، يُقصد به بشكل أساسي الذين كانوا يعيشون مع النبي في بيته في حياته، وهم أزواجه وبناته. [وهناك من قال إن المقصود بالبيت هنا الإسلام أو الكعبة (البيت العتيق)، فكل المسلمين هم أهل البيت بهذا الفهم، وما يدعم قول القائلين بهذا أن النص جاء بصيغة المذكر "يطهركم" لا "يطهركن"، وهو رأي له وجاهته]. والآية نصّت على تكاليف واضحة جعلها الله سبباً للتطهير - إن عملن بها وأطعن الله ورسوله - وإذهاب الأذى والشر عنهن، لا بمعنى أن التطهير يتم بلا عمل، فقوله: (... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهَّرَكُمْ تَطْهِيرًا) هي إرادة شرعية لا تكوينية، وهي مثل قوله تعالى في آية (المائدة: ٦): كما تشير إلى أن النسب في الإسلام هو للأب لا للأم، وأولاد النبي من الذكور توفوا صغاراً كلهم، لذا قال تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} وكان الله بكلِّ شيءٍ عَلِيمًا} (الأحزاب: ٤٠). وعليه فإن نسب الحسن والحسين -ومن نسل منهما- عائد إلى علي بن أبي طالب لا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا لا ينفي المكانة المحترمة التي يحتلها الإمام علي والحسن والحسين، لكن دون ادعاء عصمة لهم أو ادعاء أفضلية لمجرد نسيبهم، أو لعلاقتهم بغاطمة الزهراء (بنت الرسول) -رضوان الله عليها- من حيث هي زوجة علي وأم الحسن والحسين.

هذا المفهوم، وما زال إلى الآن يُعبأ إيديولوجياً ويُسيّس، وتُحشد الجماهير على موجهه، وتُجمع الأموال باسمهم وتراق الدماء.

لننظر؛ هل أعطى القرآن لقراءة النبي محمد أو غيره من النبيين أي امتيازات عن الناس المؤمنين؟

قال تعالى:

{وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ { (هود: ٤٥-٤٦).

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ { (الأنعام؛ ٧٤).

{وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوَّاهٍ حَلِيمٌ { (التوبة: ١١٤).

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ { (الزخرف: ٢٦).

{وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ { (البقرة: ١٢٤).

- {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ} (التحریم: ١٠).

- {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} (الجن: ٢١).

- {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} (الزمر: ١٣).

- {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} (الكهف: ١١٠).

- {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنْ أَحْكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} (يوسف: ٦٧).

- {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (التحریم: ١١).

- {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَآخَشُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَاز عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَتِكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ} (لقمان: ٣٣).

واضح في النصوص المذكورة أن النبي الوالد لا يُجزى عن ولده شيئاً، والنبي الولد لا يُجزى عن أبيه شيئاً، وكذلك النبي لا يُجزى عن زوجته شيئاً، والزوجة الصالحة لا تُجزى عن زوجها شيئاً، ومن باب أولى القرابة الأبعد كالعم وابن العم والأحفاد والأسباط، {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ} (المؤمنون: ١٠١)، {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ - وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ - وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ - لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} (عبس: ٣٤-٣٧).

أقرباء النبيين أو العظماء أو الصالحين ليس ذلك معياراً للصلاح، وليس ميزة لأي إنسان، فالجميع أمام القانون الإلهي سواء كلهم لآدم؛ وآدم من تراب، هذا المفهوم محكم وثابت ينبغي دراسة النصوص المتعلقة بالأقرباء على موجب، كما أن النبي لا يطلب أجراً قط على دعوته بصرف النظر عن نوعه مادياً أو معنوياً، {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الشعراء: ١٠٩)، {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} (ص: ٨٦)، هذا المفهوم أيضاً محكم وثابت ما ينبغي نقضه حين الدراسة.

لنقرأ: {ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ} (الشورى: ٢٣).

ينبغي أن نعلم أن دلالة كلمة (قل) في النص القرآني مجردة عن قرينة تفيدها للنبي تكون عامة لكل من يصل إليه الرسالة مؤمناً بها.

نحو {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} (الإخلاص: ١)، {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} (الفلق: ١)، والنص المعني بالدراسة هو من هذا القبيل {...قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...}، وكلمة (قربى) ليست جمعاً لكلمة (قريب) وإنما هي مصدرها، لأن كلمة (قريب) تجمع على (أقرباء) أو (قريبين) ومصدرها قرابة، بينما كلمة (قربى) تدل على الطاعات والأعمال التي يبذلها الإنسان في سبيل الله ولوجه لله {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (التوبة: ٩٩)،

ولو كان المقصد بكلمة (القربى) قرابة النبي لقريش ويطلب منهم مودته لكان ينبغي أن تأتي بصيغة تدل على تعلقها بالنبي مثل: (إلا مودتي في القرابة)، ولو كان المقصد طلب المودة لأقرباء النبي لأتت الجملة بصيغة (إلا أن تودُّوا أقربائي)، ولو حصل ذلك لصار النص كذباً وينقض نفي عدم طلب الأجر، لأن ذلك الاستثناء هو أجر في واقع الحال، ولكن الجملة أتت

{...قل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...} غير متعلقة بالنبي ولا بقرباته قط، وهذا يدل على أن دلالة كلمة (قربى) غير دلالة كلمة (قراة أو أقرباء).

{وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا} (النساء: ٨). وكلمة (قربى) في النص هذا لا يقصد بها القراة، لأنه لا يعقل أن مجرد حضور أحد من الأقرباء وكان غنياً ينبغي أن نرزقه! ولو كان المقصد بها القراة لأتت كلمة (الأقربون) كما في قوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْأُولَادِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} (البقرة: ١٨٠).

وهذا يدل على أن كلمة القربى حين إسقاطها على الواقع تدل على أصحاب القربات بمعنى أصحاب الحاجات سواء الخاصة مثل المرض والعجز أم العامة، أو أصحاب القربات لله الذين لا يرجون من الناس شيئاً ولا يطلبونهم وهم في طاعة لله، والعمل الصالح إما ممارسة أو حضاً عليه، فهؤلاء هم محل القربى فادعموهم ولا تنسوهم.

فنص {...قل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...} لا علاقة له بالأقربين قط، وهو من الاستثناء المنقطع بمعنى الاستثناء من نفي السؤال وليس الاستثناء من الأجر لأن الأجر

أي كان نوعه مادياً أم معنوياً أنتفى كلياً، وهو مثل النص التالي: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَيَّ رَبِّهِ سَبِيلًا} (الفرقان: ٥٧)، فالنص ينفي طلب الأجر على عمومه أي كان نوعه للنبي، ولكن استثنى قيام الإنسان بالتقرب لله وحده في الإنفاق في سبل الخير للناس وليس للنبي نفسه، وهذا الاستثناء من النوع المنقطع، وبصير معنى نص {...قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...}،

لا أَسْأَلُكُمْ أَجْرًا أَبَدًا لِنَفْسِي أَوْ لِأَفْرَادٍ أُسْرَتِي أَيَّا كَانَ نَوْعُ الْأَجْرِ مَادِيًّا أَوْ مَعْنَوِيًّا، ولكن أسألكم الصلة والتعاون والاهتمام والدعم والاعتناء بالقربي، بمعنى بالمعروف والمساعدة لأصحاب الحاجات والطاعات والناس البررة.

وهذا يدل على طلب الصلة والدعم النفسي والمادي لأصحاب الحاجات في المجتمع، وهذا يعني أن الفائدة راجعة لهم وليس للنبي أو للداعية أو المعلم، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} (الأنعام: ٩٠)، {قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (سبأ: ٤٧)، ومثل ذلك كمثله رجل عمل معروف معك ولم يطلب أجراً لنفسه وقال لك: لا أريد منك أجراً إلا أن تنتبه لوالديك وبرهما واعتني بأولادك.

وبناء على ذلك تكون دلالة كلمة (لذي القربى) في النص التالي: {وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الأنفال: ٤١)، هم محل القربى إلى الله، وهم أصحاب الحاجات الخاصة، أو الإنسانية التي ترجع فائدتها إلى المجتمع.

ولا علاقة لذلك بما يسمى الخمس الذي يسلبه الكهوت والهامانات من الناس من غير وجه حق باسم قرابة النبي وبتحريف مفهوم النص لشرعنة الاحتيال والنهب والسلب، و أكل أموال الناس بالباطل.

لذا؛ مفهوم الحب والود لقرابة النبي ليس هو مطلباً دينياً أو واجباً، ونقيض الحب ليس الكراهية والبغضاء وإنما نقيضه اللاحب وهو موقف سلبي لا يدل على شيء، بينما الكراهية والبغضاء موقف يتجاوز نقيض الحب إلى العدوانية والحرب، وأقرباء النبي الصالحين ليسوا أعداء لنا ولا نكرهم، وموضوع حبهم كإعجاب بشخصهم وسيرتهم موقف شخصي لا علاقة له بالدين، ولو قرأنا القرآن كله لا نجد ولا نص يحض على حب النبي محمد نفسه وإنما نجد أمراً باتباعه فيما نزل عليه

من رسالة ونصرة دعوته والولاء له في حياته وحمايته ودعمه وطاعته كنيبي وقائد وعالم ومعلم وإمام حينئذ.

ولا يوجد حب بمعنى الشعور والتعلق بشخصه، وإنما يوجد حب له بمعنى احترامه واتخاذة قدوة وأسوة حسنة واتباعه فيما نزل عليه من رسالة: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (آل عمران: ٣١).

أعصي الإله وأنت تزعم حبه ... إن المحب لمن يحب مطيع». **إمام**
إسلامبولي، مفهوم القربى في القرآن لا علاقة له بأقرباء النبي].

ومما ينبغي التنبيه له هنا أن عبارة «لذي القربى» أو «الأقربين» قد وردت بشكل متكرر في آيات كثيرة، ولكن كان معناها غالباً -مرتبطاً بها- ذكر لغيرهم كاليتامى والفقراء والمساكين، وكذلك يأتي المهاجرون وابن السبيل، إلخ؛ فكان هذا الحث على الإحسان لهم ليس على أساس العصبية الأسرية والقبلية وغيرها، وإنما على أساس الاستجابة لأمر الله بالإحسان لهم وفق ما أمر الله وحدد، بحيث لا يتجاوز المرء في مواضع أخرى حدود الشرع بدعوى الإحسان للأقربين أو ذوي القربى. وتأمل قوله تعالى: {..وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (الأنعام: ١٥٢)، فقول الحق أولى ومقدم، وخط لا يمسّ بالتجاوز، ولو كان ضد ذي قربى.

وقوله تعالى في الوصية والإشهاد: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذُوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ} (المائدة: ١٠٦).

وأيضًا، قد حرم الله على النبي والمؤمنين أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى، لقوله: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} (التوبة: ١١٣).

وكذلك الأمر مع إبراهيم عليه السلام: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} (التوبة: ١١٤).

فلا ولاء إذاً فوق ولاء الإسلام، ولا أولوية سواه، ولا يوجد إحسان على حساب الإسلام وقيمه وتعاليمه وشرعه، وإنما هو إحسان ضمن إطار الإسلام ووفقاً لتعاليمه وحدوده.

ولن ينفذ الإنسان يوم القيامة إلا عمله، ومدى إخلاصه لدين الله وتمسكه بقيمه وشرعه، لقوله تعالى: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ

فَلَا أُنْسَابَ^[٦] بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ} (المؤمنون: ١٠١)،
 وقوله: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلِهَآ لَا
 يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ} إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
 بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ
 الْمَصِيرُ} (فاطر: ١٨).

فإذًا، لا بد أن نلاحظ هذا التكرار للدعوة للإحسان للأقارب؛
 كان يأتي معه دائمًا الحث على الإحسان لليتامى والمساكين
 والفقراء والمحتاجين والمهاجرين في سبيل الله، وعابري السبيل،
 والجار القريب، والجار البعيد، والصاحب بالجنب.. إلخ،
 والإحسان للناس جميعًا، وليس هو محصورًا بالأقارب وحدهم.
 ورأيي أن ذكرهم (أي الأقارب) مع بقية الأصناف في معظم
 الآيات ليس لتمييزهم على غيرهم تمييزًا ظالمًا، وإنما لئلا
 يتطرف بالإنسان ميله لقربته، فيقصر الإحسان والصدقة عليهم؛

[٦]. وفي قوله تعالى: {فَلَا تَدْعُ مَعَ إِلَٰهَا أُخْرَىٰ فَتَكُونَ مِنَ الْمُذَلِّينَ} وأنذر عشيرتَكِ الْأَقْرَبِينَ} (الشعراء: ٢١٣-٢١٤)، فإن في الآية
 إنذارًا لهم -لأقاربه (ص)- لا تمييزًا؛ وأن أنذرهم فلن نتفعهم قرايبهم منك إلا من آمن بالله (وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) وعمل
 صالحًا منهم، فهم كغيرهم سواء. فبعد إنذار شخصه. صلى الله عليه وسلم. يكلف إنذار أهله. ليكون لمن سواهم عبرة، أن هؤلاء
 يتهددهم العذاب لو بقوا على الشرك لا يؤمنون. «**أسيه قطب في الأطلاق**». وهذه الآية ليست -كما يفهم بعض الجهال- قصرًا للدعوة على
 عشيرته الأقربين، وإنما ذلك إجراء طبيعي ضمن دعوة الناس عمومًا؛ فببدا بأهله وعشيرته في إطار دعوته العالمية. فإذا أنذر الرسول أهله،
 فهل معنى ذلك أنه اقتصر بالإنذار عليهم؟ لا، وإنما هذا هو الأمر الالهي؛ فليست هي تمييزًا لهم مطلقًا، بل على العكس، فالآية فيها
 إنذار لهم قبل غيرهم، لينفي الله أي ثغرة قد يتخذها هؤلاء الأقربون بدعوى قرايبهم من رسول الله؛ فكانت البراءة من كفرهم وأعمالهم قبل
 غيرهم من الناس، كما قال تعالى في نفس السياق من السورة: {فَإِن عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ} وتوكل على العزيز الرحيم
 (الشعراء: ٢١٦-٢١٧)، وهذا غاية العدل والحرص من المشرع الحكيم، فلا مجاملة على الإطلاق. وجاء في روايات تاريخية عدة أنه
 (ص) قد قال عندما نزلت هذه الآية: "يا معشر قريش، انقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني كعب، انقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة
 بنت محمد، انقذ نفسك من النار، فإني والله لا أملك لك من الله شيئًا". ولكن الذي حدث أن هنالك جاهليين اعتبروا أن أقارب النبي
 أناس فوق بقية الناس، وأن الحكم فيهم، والإمامة فيهم، والخمس من الغنائم لهم، وحجهم جزء من الدين... إلخ، وما على الناس إلا
 الخضوع والانقياد لهم في تسليم مطلق؛ وهذا قد يكون كل شيء إلا أن يكون دين الله الذي نص على أن الأكرم عند الله تعالى هو الأتقى
 فقط، وأنه لا تمييز بين الناس مطلقًا لولن أو لسان أو نسب. ثم ولا ننسى إن هذه الآية (الشعراء: ٢١٤) سُيِّت بإنذار الرسول (ص) نفسه،
 فقال تعالى: {فَلَا تَدْعُ مَعَ إِلَٰهَا أُخْرَىٰ فَتَكُونَ مِنَ الْمُذَلِّينَ} (الشعراء: ٢١٣)، فهل معنى ذلك أن الدعوة اقتصرت عليه دون غيره؟!

لذا كان التذكير والتكرار في غالب الآيات بأن لهم جميعاً حقاً في الإحسان والصدقات، إلخ. وهذا كله ضمن خطة الإسلام التكافلية التشاركية الشاملة في المجتمع الإسلامي التكافلي؛ فلو فعل كل فرد ذلك تجاه من حوله من أقارب ومحتاجين، إلخ، لما بقي محتاج في المجتمع، وهذا أيضاً دور خاص أعطاه الله لكل فرد في المجتمع ليكون فاعلاً مبادراً مسؤولاً.

لننظر للآيات المتعلقة بهذا الموضوع، قال تعالى:

- {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ} {البقرة: ٨٣}.

- {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} {البقرة: ١٧٧}.

- {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا} {النساء: ٨}.

- {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا^ط وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ
وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ^ظ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا} (النساء: ٣٦).

- {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا
أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ^ط وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الأنفال: ٤١).

- {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ^٢ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النحل:
٩٠). «لقد جاء هذا الكتاب لينشئ أمة وينظم مجتمعا، ثم
لينشئ عالما وقيم نظاما. جاء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب
فيها لقبيلة أو أمة أو جنس؛ إنما العقيدة وحدها هي الأصرة
والرابطة والقومية والعصبية. ومن ثم جاء بالمبادئ التي تكفل
تماسك الجماعة والجماعات، واطمئنان الأفراد والأمم
والشعوب، والثقة بالمعاملات والوعود والعهود. جاء {بالعدل}
الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة
للتعامل، لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر بالود والبغض، ولا تتبدل
مجاراة للصهر والنسب، والغنى والفقر، والقوة والضعف. إنما

تمضي في طريقها تكييل بمكيال واحد للجميع، وتزن بميزان واحد للجميع. وإلى جوار العدل.. {الإحسان}.. يلطف من حدة العدل الصارم الجازم، ويدع الباب مفتوحاً لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثاراً لود القلوب، وشفاءً لغل الصدور. ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليداوي جرحاً أو يكسب فضلاً.

والإحسان أوسع مدلولاً، فكل عمل طيب إحسان، والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل، فيشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه، وعلاقاته بأسرته، وعلاقاته بالجماعة، وعلاقاته بالبشرية جميعاً. ومن الإحسان {إيتاء ذي القربى}، إنما يبرز الأمر به تعظيماً لشأنه، وتوكيداً عليه. وما يبني هذا على عصبية الأسرة، إنما يبنيه على مبدأ التكافل الذي يتدرج به الإسلام من المحيط المحلي إلى المحيط العام، وفق نظريته التنظيمية لهذا التكافل). [سيد تطب، في ظلال القرآن].

- {وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا} (الإسراء: ٢٦).

- {وَلَا يَأْتِ أَوْلُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلِيَ الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (النور: ٢٢).

- {فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ
لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (الروم: ٣٨).

- {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِللرَّسُولِ وَلِذِي
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةَ بَيْنَ
الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا أَتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (الحشر: ٧). وهذه الصورة
الشاملة حول هذه الموضوعات ينبغي ألا تغيب عن ذهن
الإنسان المسلم الساعي إلى تحقيق العبادية لله.

فمن تحققت فيه معاني تلك العبادية تجرد بإخلاص للعقيدة
الإلهية، فلم يعد ينظر للناس إلا على أساس واحد لا غيره: يَا
أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ { (النساء:
١)، و... وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات: ١١٣).

وليس اختلاف الألوان والألسنة والأعراق إلا آية من آيات الله
تبارك وتعالى الدالة على بديع خلقه وتصميمه {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَانَكُمُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ} (الروم: ٢٢)؛ لا ذريعة للتعصب والتعنصر،
وكان إحسانه للقريب وغير القريب كله خاضعاً لأمر رب
العالمين، لا لهوى نفس أو عصبية دم أو لسان أو لون.

* استطراد لا بد منه:

الولاء لله ورسوله مقدّم على ولاء القرابة

لقد قدم القرآن العظيم الولاء (لله ورسوله والمؤمنين)، وأصره الإيمان على أي ولاء آخر أو آصرة ورابطة، سواء النسب / الرحم أو الجنسية أو القومية أو غيرها.

قال تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} * قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (التوبة: ٢٣-٢٤). وقال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} (الممتحنة: ٤). قد يقول قائل: فماذا عن قوله تعالى في سورة الأنفال: {وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ..}، ألا يجعل ولاء الرحم هنا أولى من كل ما عداه؟

نقول: هذا النص إنما هو جزء من آية، وتلك الآية جزء من آيات في سياق كامل، وكلها تعود لمنظومة واحدة كبرى.

فلا يجوز الاجتزاء، واتخاذ آيات القرآن عَضِينَ، وهو منهج طالما نهى عنه القرآن ذاته.

قال تعالى: {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} (الحجر: ٩١)، أي فرقوا آياته، وأخذوا بعضها وتركوا بعضها الآخر، فأخذوا ما يعجبهم وتركوا ما لا يعجبهم، وهذا ما يؤدي إلى خلل في الفهم وانحراف في الاستنباط. {فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (الحجر: ٩٢-٩٣).

والنص موضع الإشكال هو جزء من آخر آية من سورة الأنفال، وقد سبقه هذا السياق الكامل: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَصْنَةِ أَوْلِيَاءِ بَعْضٍ ۗ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا

مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ { (الأنفال: ٧٢-٧٥).

فالنص المشكل هو حديث عن علاقة خاصة، هي علاقة الرحم والقربة، في إطار من الأولوية في الحقوق والواجبات (كال ميراث والنفقة والوصال إلخ)، بعد أن استقر كيان المجتمع الإسلامي ودولته في المدينة. وهي علاقة تقوم على العناية والرحمة والبر والإحسان كما أمر الرحمن في كتابه، لا على أساس العصبية الجاهلية للنسب والعشيرة أو القبيلة، فأساس العلاقة هنا هي الاستجابة لأمر الله لا لعصبية أو عنصرية.

وهذه العلاقة الخاصة تقع ضمن دائرة العلاقة العامة، التي يمثلها الولاء للإسلام بمفهومه الشامل.. فلا ينبغي للعلاقة الخاصة أن تتعارض مع العامة، وإن وقع التعارض فالعامة، أي الولاء لله ورسوله والمؤمنين، هي الأولى حينئذ، وهي الحاكمة والمقدمة. فإذا تعارض ولاء الرحم أو غيره مع ولاء الدين في لحظة ما، كانت الأولوية للدين حتما، كما قال تعالى في محكم تنزيله: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (المجادلة: ٢٢).

وقد جاء نفس المعنى في آية الأحزاب، حيث قدم النبي على النفس ذاتها: {النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} (الأحزاب: ٦) «اعلموا أيها المؤمنون أن النبي أحرص على استقامة أمركم وأحق بولايتكم من أنفسكم، فعليكم أن تطيعوه وتتبعوا شرعه» [تيسير النصير].

فقررت الآية أن النبي أولى بالمؤمنين، ليس من أرحامهم وحسب، بل من أنفسهم أيضا، فيما يأمرهم به وينهاهم عنه عن ربه سبحانه، مما يؤكد أن الولاء العقدي مقدم على كل ولاء آخر، وليس ملغيا له بالضرورة. إذًا، لا تعارض بين الولاء الخاص (كالرحم والقرباة) والولاء العام (ولاء الإسلام)، بل يضبط الخاص ضمن العام، ولا يجوز أن يقدم عليه أو يعارضه.

الخلاصة: ولاء الإنسان المسلم هو لله ورسوله والمؤمنين، بنصرته وحبه لرسالة الإسلام بمعناه الأعم الشامل؛ بشرعه، ومعتقده، وشعائره، وقيمه، ومنظومته الأخلاقية.. المتضمنة كلها في كتاب الله المجيد المهيمن على كل ما سواه. وذلك هو

الولاء المقدم على كل ولاء آخر، كما قال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} (المائدة: ٥٥)، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (التوبة: ٢٣).

على أن ولاء الإسلام، كما ذكرنا تواء، لا يلغي ولاء الرحم والقربة وغيرها، وإنما ينظمها ويضبطها ضمن الولاء الأعلى والأشمل والأصل، وهو ولاء الإسلام. وعلى هذا الأساس تنبني، وتتشكل، وتفهم هوية الإنسان المسلم وانتماؤه ووطنه الحقيقي في كل زمان ومكان» [من كتابي: المرجع الأعلى في الإسلام].

[VII]

إن السعي المقدس الذي عنيناه في هذه المقالة الطويلة، هو سعي نحو الحرية التي لا تتحقق بغير تحقق العبادية لله، والكفر بكل مدعٍ للألوهية سواه.

قد يقول قائل: فأين مصداق ذلك في الواقع المعاصر؟ فأقول: بل أين لا تجد ذلك في هذا الواقع الغارق في شتى صور الوثنيات والشرك، وطاعة الخلق لخلقٍ مثلهم طاعة مطلقة، وانقيادًا تامًا، واستسلامًا كاملاً لهم؟

خذ الواقع الإسلامي مثلاً: أين في كل الدول التي تُسمّى "إسلامية" توجد حرية حقيقية، ومساءلة للحكام، وانتخاب نزيه، وسلطة قضائية مستقلة، وإعلام حر، إلخ؟!

فهل هناك من بين كل تلك الدول ما يصح أن يُطلق عليه دولة إسلامية؟ كيف ذلك، ومعظمها قامت على غير اختيار ممن يعيش فيها، ورُسمت حدودها بإرادة غيرهم، ثم هي بالتبعية تنتكّر لتعاليم الإسلام وقيمه وشرعه، فتستبدل شريعة الله بشريعة الطاغوت، وتلتفت فتجد الأمر كله محصوراً بفئات ضيقة أو سلالات محددة، وكذا أمر المال العام، ثم الفساد المتفشي بطبيعة الحال في كل اتجاه، والفقر والظلم الذي تتشقق منه الجبال. ووصل الحال بشعوبنا إلى مرحلة خطيرة بشعة، تجترئ على الله وسننه التي لا تبديل لها؛ فلما تحدثت مع جمع من عبيد آل سعود وحراس معبدهم الوهابي عن إمكانية التغيير وأنه لا بدّ حادث، انفجروا مقهقهين ساخرين مستكبرين قائلين: هذا محال، وما أنت سوى واهم أو بك مسّ من الشيطان! آل سعود اختارهم الله وعينهم علينا ورضي عنهم، وزوالهم من سابع المستحيلات، وهم إلى يوم القيامة باقون لا محالة.

بل هم يعتبرونهم آلهة مع الله؛ فلا يخضع أميرٌ منهم للحساب ولا للسؤال، ولا يقبل حتى بالنقاش. نقاش مع من؟ مع عبيده؟

هكذا ينظرون إلى جماهير الأمة في جزيرة العرب... وكما أن الله جلّ جلاله لا يُسأل عما يفعل، كذلك آل سعود هم بذات المرتبة! هكذا يظن العبيد، ثم يقولون إنهم مسلمون!

في المجتمعات التي تحققت فيها العبادية لله، لا يمكن بحال أن يستنكف أحد عن الخضوع للسؤال والمعارضة والمراقبة والحساب؛ فلا يوجد من هو فوق القانون، ذلك لأنه لا أحد فوق المساءلة سوى الله جل جلاله: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} (الأنبياء: ٢٣).

ومجتمع العبادية، الذي هو مجتمع مسلم بطبيعة الحال، مرجعية الحياة العليا فيه هي كتاب الله {..إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (يوسف: ٤٠)؛ بحيث إنه لا يصدر شيء عن مجالس الجماهير الشورية وفيه معارضة لشيء من قطيعات الشريعة ومحرماتها. وأما الحلال فمساحته واسعة، والاجتهاد فيه مباح ومطلوب، والأمر فيه عائد للشورى بلا شك.

فالشورى لا تنفك عن كونها مرتبطة بمرجعية الشريعة، ممثلة بالنص القرآني باعتباره المرجع الأعلى في الإسلام. بمعنى أنه لا شورى بدون المرجعية القرآنية، ويمكن أن يوجد -وهو موجود-

أنظمة ديمقراطية لا تتخذ القرآن مرجعية؛ ولكنها في النهاية عرضة لكوارث أخلاقية وتشريعية لا حصر لها.

فلننظر إلى الدول التي مرجعياتها فلسفات أو أيديولوجيات بشرية، ولنتأمل التيه الذي يتخبطون فيه، بل والإجرام الذي تمارسه تلك الدول خارج حدودها من غير ما إنكار من شعوبها (اللهم إلا فيما ندر)، بحيث لا يعود للإنسان أي قيمة ما دام خارج حدودها، فتنتهي إنسانيته عند حدود تلك الدول، وهذا واضح لكل ناظر؛ فكبرى دول العالم "الديمقراطي" لا تستنكر حملات الاستعمار وما ارتكبته من مجازر وفظائع كان ضحيتها ملايين الأبرياء في بقية ما يسمونها بدول "العالم الثالث".

إن الأزمة الأخلاقية واضحة جلية؛ لأن المرجعية الإلهية غُيِّت، وأُحِلَّ محلها مرجعيات مادية بشرية ناقصة، خاضعة لأهواء البشر وتقلباتهم وأمزجتهم وعصبياتهم، فكان حتماً أن يقع هذا التخبط في العالم بأسره.

وكثير من دول ما يسمى بـ"العالم الأول" أصبحت اليوم أمام تحديات وأخطار داخلية كبرى تتمثل في صعود أحزاب وحركات يمينية عنصرية شوفينية فاشية تزعم تفوق العرق الأبيض، وتدعو إلى حرق المسلمين وطرده المهاجرين، والحفاظ على تفوق إسرائيل العسكري والتكنولوجي، كما تسليح

المستبدين الغاصبين المتفرعين في العالم الإسلامي على وجه الخصوص؛ وهذه كلها علامات للأزمة الأخلاقية الكبرى التي هي أثر جانبي للأزمة الأكبر المتمثلة في غياب مفهوم العبادية لله جل وعلا، وإعراض المجتمعات البشرية عن شرع الله وقيمه وتعاليمه، معتبرين ذلك مظهرًا من مظاهر النكوص والرجعية؛ غير أن الرجعية الحقة هي عين ما تعيشه هذه المجتمعات المعاصرة التائهة الحائرة، الغارقة في مستنقعات الظلم والطبقية والعنصرية.

نعم، لا ننكر ما أحرزته تلك المجتمعات من تقدم على مستوى الديمقراطية وحكم القانون والمؤسسات وسلطة الشعب، ولكن كان مفهوم العبادية غائبًا، فلم تنفعها كل تلك المؤسسات ولا القانون ولا الديمقراطية من الانحدار، بل الانحطاط إلى مستويات مروعة في جرائم الكراهية والعنصرية والتمييز والإقصاء والانقسام الحاد بين المواطنين والأقليات المقيمة هناك؛ وإن كان من تلك الأقليات ملايين المواطنين، فإن الحركات العنصرية لا تعترف لهم بذلك، وصارت تدعو جهارًا إلى ترحيل كل غير البيض.

ولست متعجبًا من هذا الواقع المحبط المفزع، بل هو المتوقع في ظل غياب الإرشاد والنور الإلهيين.

الأمر محسوم؛ لا يمكن لنصّ قانوني أن يجعل من العنصري إنساناً طبيعياً محترماً لغيره من البشر من غير تعالٍ أو ادعاء تفوق، ولا العقوبة لمثله تشكل رادعاً حقيقياً، ولكن ذلك ممكن بل حتمي إذا ما كان ذلك النص القانوني نصّاً مقدّساً لديه، أي جزءاً من عقيدة ذلك الإنسان.

وهذا ما يتحقق -حصراً- عبر نظرية العبادية لله، بالتسليم بما أوحاه تبارك وتعالى إلى رسله في كتبه التي كان القرآن الجامع والمكمل والحافظ لها كلها.

يقول تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات: ١٣). إن الهدف إذاً من جعل الناس شعوباً وقبائل هو كي يتعارفوا، والتعارف شرط التعايش؛ بمعنى أنه لا تعايش بلا تعارف، وهو التمهيدي الطبيعي لأي لقاء بين اثنين. التعارف إذاً هو شرط التعايش، ولذا كان المعنى: لتتعارفوا، ومن ثم لتتعايشوا، ولا يعلو أحد فوق آخر ولا قوم على قوم آخرين. ومن آياته تبارك وتعالى أنه حرّم السخرية بين الأقسام والتنازع بالألقاب والهمز واللمز والبغي بغير الحق والنفاق وقذف المحصنات... إلخ، وهذا كله مما يُحصّن المجتمعات التي تتحقق فيها العبادية لله بالاستجابة لما أوحاه.

يقول عز من قائل:

- { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } (الحجرات: ١١).

- { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } (الأعراف: ٣٣).

- { إِنَّ الْمُتَنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا } (النساء: ١٣٥).

- { إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } (النور: ٢٣).

فهل يمكن لمن يعتبر هذه النصوص جزءاً من عقيدته وكيانه، مؤمناً عاملاً بها، أن يسخر من قوم، ويتعنصر عليهم، ويدّعي أنه خير منهم لمجرد اختلاف عرق أو لون أو لسان؟ محال.

وأكثر من ذلك، ففي مجتمع العبادية لله يُحرّم التجسس على الآخرين تحت أي ذريعة ومن أي جهة كانت؛ وهذا مما يحفظ كرامات الناس وخصوصياتهم ويصون أعراضهم: {وَلَا

تَجَسَّسُوا...}. كما تُحَرِّمُ الغيبة: {وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا
أُيْحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ}، والنميمة:
{وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٌ لِلْخَيْرِ
مُعْتَدٍ أَثِيمٍ} (القلم: ١٠-١٢)، وظن السوء: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}... إلخ، وكل ما
يمكن أن يهدد استقرار وسلام وحرية وأمن وتعايش
المجتمعات التي أخلصت العبادة لله وأفرته سبحانه بها.

إن العنصرية اعتقاد فاسد وأيديولوجيا خبيثة، ولن يُقضى عليها
إلا بعقيدة مضادة هي عقيدة: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}؛
عقيدة ينصهر الإنسان فيها، ويتشكل بها، ويرتقي من خلالها،
ويتحرر ويسمو.

إن الحل للبشرية اليوم هو في السعي نحو تحقيق العبادية
الكاملة لله تبارك وتعالى، وهذا هو الذي سيلجم الأهواء
والشهوات، والنزعات العنصرية، والميول الشاذة، ويضع حدًا
للمذابح والحروب والصراعات.

وماذا لو أن قوله تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ
وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} (البقرة: ١٩٠)، كان
جزءًا من عقيدة شعوب دول احتلت ودمرت وقتلت ملايين
الأبرياء خارج حدودها؟ لو أن تلك الآية جزء من اعتقادهم

الذي يؤمنون به ويخضعون له ويعملون به، لما حدث ما حدث، ولما شهد العالم كل تلك المآسي.

وقد يعترض عليّ معترض فيقول: وماذا عن المجتمعات الإسلامية؟ أليست تؤمن بما تتحدث عنه، ومع ذلك فانظر إلى حالها وحال بلدانها! والجواب يكون: ومن قال لكم إن تلك المجتمعات مسلمة بحق؟

هل يكفي أن يقول الإنسان: (لا إله إلا الله) لتتحقق معانيها في قلبه، ثم تنعكس على واقعه بعد ذلك وحياته؟ لا، وأزيدكم أيضاً؛ ففرعون (وهو من هو؟ فرعون الذي معروف ما هو مصيره وجنوده) قد قال من قبل إنه (آمن بالله)، فهل نفعه إيمانه ذاك؟ يقول تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} (يونس: ٩٠-٩١).

إذا؛ فالمسألة جد عميقة وعويصة، ولست أبالي مطلقاً بمن يقول: وهل تكفر هذه المجتمعات كلها؟ وذلك لسببين:

الأول: أن التكفير عندي ليس موجباً للقتل ولا مبرراً لاتخاذ سبيل العنف، وذلك لما تقدم الحديث عنه من إقرار الإسلام للحرية وتحريمه كل صور الإكراه، سواء على الدين أو عن

الدين. ثم أنا لا أكفر كل فرد بعينه؛ فهناك الاستثناءات بطبيعة الحال.

والثاني: لأن هذه هي الحقيقة؛ فهب أن شخصًا كتب قانونًا ما وأقره، ثم يصرّ على مخالفته وخرقه في كل مرة؛ فماذا تسمي ذلك حينئذ؟ إنه كافر بما كتب، وادعائه الإيمان به مجرد ادعاء، والادعاء لا يغني عن الحق شيئًا، فكل ادعاء كذب حتى يثبت بتطبيق عملي معاش. وإلا كان من العدل أن يُنجي فرعونَ إيمانه، ومن الظلم أن يناله ما سيناله!!

فمن قال: أنا أو من بقوله تبارك وتعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}، ثم لا يوفرّ فرصة إلا ويمارس فيها كل صنوف العنصرية والتعصب والشوفينية، فادعائه الإيمان بالآية كذب لا محالة، حيث يثبت ما ادعاه بممارسة إيمانه عمليًا بالآية، بأن يتخلص من عنصريته، ويغير نظره إلى الوجود كله، ويدرك أن الناس كلهم خلقوا من نفس واحدة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ..} (النساء: ١)، وبالتالي، فكلهم سواء، لا فرق بين إنسان وإنسان إلا بالتقوى.

وما اختلاف اللغات والألوان إلا آية من الآيات الدالة على الله سبحانه وعلى بديع خلقه، وأن التعدد والاختلاف سنة من سننه تعالى، ومما يريد المجتمعات غنى وقوة ووعيًا وتعايشًا وإنسانية

وانفتاحًا، فلا يكون ذلك الاختلاف مبررًا للعنصرية، وإنما قاتلاً لها. ويدرك أن الهدف من جعل الناس شعوبًا وقبائل هو كي يتعارفوا، وبالتالي يتعايشوا، ذلك لأن الأكرم عند الله في نهاية المطاف هو الأتقى؛ أي الأكثر اتباعًا لتعاليم الله سبحانه وتمسكًا بها، وبالتالي الأكثر إحسانًا ورحمة وتواضعًا وانفتاحًا وإنسانية... إلخ. وإن لم يثبت ذلك كممارسة عملية حقيقية تنعكس على تعامله مع الآخرين، فادعاء ذلك الإيمان يظل ادعاءً لا يغير من حقيقة كفره به شيئًا.

إذًا؛ فاتهمات التكفير تلك ليست مما يثير قلقنا. نعم، من يدّعي أنه مؤمن ثم يمارس ما يتنافى مع ادعاء الإيمان، فذلك ليس بمؤمن حتمًا، وهو مدّع وكافر بما يدعيه.

وهذا كذلك منطبق على مسألة لزوم خضوع كل الناس للمساءلة والحساب، وبالذات أصحاب السلطة والنفوذ في المجتمع المسلم؛ فمن يقول إنه يؤمن بقول الحق تبارك وتعالى: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} (الأنبياء: ٢٣)، الذي يخبر فيه بحقيقة تعالیه وحده جل وعلا عن المساءلة... ثم يأتي فيضع فردًا أو مجموعة أو سلالة أو أسرة إلخ، فوق المساءلة ويرضى بذلك، فقد أشرك بالله قطعًا، لأنه أسبغ صفة هي لله حصراً على غيره.

وهذا واضح وشائع في مجتمعاتنا الراضحة تحت حكم
الطاغوت؛ وقد سبق أن تحدثت مع كثير من المسعودين (عبيد
آل سعود)، فقالوا: نعم، آل سعود لا يخضعون للسؤال، ولا
يمكن بحال أن يجترئ أحد على مساءلتهم فضلاً عن
محاسبتهم، ونحن راضون بذلك. فقلت: إذا أنتم مشركون بلا
أدنى ريب. فلم يُثر ذلك فيهم أي امتعاض!

[VIII]

في مجتمع العبادية لله، العدلُ أمرٌ جوهري؛ بل إن العدل كان من أهم غايات إنزال الكتب وبعث الرسل عليهم الصلاة والسلام، فقال عز من قائل: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ..} (الحديد: ٢٥). إن العدل جزء من العبادة، أي إن ممارسته عبادة؛ فإذا كانت عبادة الله بعدم عبادة سواه هي غاية الخلق، فإن ذلك لا يتم في ظل أجواء الظلم والجور؛ لذا كان العدل من أهم خصائص وشروط تحقيق مجتمع العبادية.

ولا يمكن بحال أن يوصف مجتمع ما بأنه مسلم وهو غارق في ظلمات الظلم والقهر.

إن الحرية والعدل والمساواة والشورى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لهي من أخص خصائص مجتمع العبادية؛ ليس ذلك فقط، بل ونصرة المستضعفين، وإغاثة الملهوفين، واستقبال المهاجرين واللاجئين، وكفالة اليتامى والمحتاجين، ورعاية الفقراء والمساكين، والعناية بالعاملين ومحدودي الدخل، والإحسان إلى عابري السبيل، واحترام خصوصيات الآخرين، فلا تجسس ولا ترويع للآمنين، وكذا التعايش مع المخالفين، ونبذ العنصرية والتمييز والإقصاء، وكل صور التهيب والإكراه...

وغيرها مما تفيض به آيات الذكر الحكيم من قيم ومبادئ لا يتبناها مجتمع إلا وأصبح آية في الأمن والسلام والحرية والكرامة والمساواة والعدالة والرقي والاستقرار والتعايش بين مختلف الناس. فهل نجد شيئاً مما ذكرناه في مجتمعات تدّعي أنها إسلامية؟ بل لا نجد إلا كل ما هو عكس ذلك.

لا تقل لي إنك تعبد الله وأنت لا تفتأ تظلم الناس، وتأكل حقوقهم، وتقسو على ضعيفهم، وتساند عليهم الظالمين والباغين والغاصيين والعنصريين والمفسدين في الأرض. كم تشكل نسبة أبناء المسلمين في جيوش الطواغيت في العالم الإسلامي؟ أليست تلك أوضح صور مساندة الظالمين؟

في مجتمع العبادية لله لا يقاتل الناس مع الطغاة: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} (النساء: ٧٦)، «الذين صدقوا في إيمانهم اعتقاداً وعملاً يجاهدون في سبيل نصره الحق وأهله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل البغي والفساد في الأرض، فقاتلوا أيها المؤمنون أهل الكفر والشرك الذين يتولّون الشيطان، ويطيعون أمره، إن تدبير الشيطان لأوليائه كان ضعيفاً». [التفسير الميسر]. ولا يقاتلون في سبيل الأوطان التي أصبحت أوثاناً تُعبد من دون الله (فكم من ملايين من البشر

الأبرياء قُتلوا على يد من يقاتلون في سبيل أوطانهم!!!)؛ وإنما قتالهم في سبيل الله، أي في سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا، وذلك بأن يكون الناس أحرارًا في اختياراتهم، وأن لا يكونوا عبيدًا لأحد من المخلوقين، وحتى لا تكون فتنة (أي: إكراه): {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (الأنفال: ٣٩).

ولن يكون الدين كله لله والناس في عبوديات شتى، وتحت صور لا تُحصى من الإكراه والقسر والجبر. لذا كانت مبررات القتال في الإسلام ثلاثة: دفع العدوان، ونصرة المستضعفين {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا} (النساء: ٧٥)، ورفع الإكراه عن العالمين، وذلك هو القتال في سبيل الله؛ أي في سبيل أن يحيا الناس كلهم في ظل قيم الإسلام الكبرى: الحرية، والمساواة، والكرامة، والعدالة، ونصرة المستضعفين، وردع الظالمين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن العبودية لغير الله شرٌّ محض، وكفر بالله وبتكريمه الأصلي لكل بني آدم؛ وجاء كتاب الإسلام الخاتم (القرآن العظيم) فلم

يُقرّر مظاهر استعباد البشر، وقد كانت متفشية في البشرية جمعاء، فكان أن أوجد حلًّا مثاليًّا للقضاء على ظاهرة استعباد البشر لبعضهم قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان، فأنزل حكمًا ظرفيًّا راقياً للتعامل مع الرق الذي كان موجودًا بالفعل؛ لا على سبيل إقراره أو شرعنته، فضلاً عن تكثيره واستمراره، وإنما ليتعامل مع الموجود على طريق إنهاء تلك الظاهرة البشعة التي كانت من عمل البشر، لا بأمر من رب البشر.

لقد كانت أحكام ملك اليمين حلًّا جذريًّا تدريجيًّا لتلك الظاهرة، ولولا أن انتكس الناس بعد أن قبض نبي الرحمة وخاتم المرسلين، لكان قُضي على الرق تمامًا منذ أزمان بعيدة سبقت اتفاقيات إلغائه في القرن المنصرم.

«لقد أعطى القرآن الكريم أولوية لأمر غفل عنها الكثيرون في العالم الإسلامي وأهملها فقهاء الشريعة عبر العصور. وليس هناك وضوح في هذا الأمر أكثر من الآية القرآنية الكريمة التالية، والتي تتحدث عن "عقبة" أو حائل يقف بين الإنسان وبين دخول الجنة، وتصف الآية الرائعة كيفية اجتياز هذا المانع أو اجتياحه أو كما وصفت الآية الكريمة "اقتحامه" فقالت في سورة البلد: {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ... وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ... فَكُّ رَقَبَةٍ... أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ... يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ... أَوْ

مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ... ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ... أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} (البلد: ١١-١٨)، ويا له من وصف مهول ونسج أدبي رائع، فأول عقبة تعيق الإنسان عن دخول جنات الفردوس الأعلى يكون "اقتحامها" من خلال فك رقبة (أي تحرير إنسان من العبودية أو الرق). ويا لها من مفارقة أن دخول الجنة يتطلب فك رقبة، وهو عكس ما علمه لنا فقهاء الإسلام "الأفاضل" من الدعوة لاسترقاق البشر بعد الحروب وأخذهم كرقيق أو عبيد يباعون في الأسواق!« [د. توفيق حميد].

ومع التشجيع على العتق المباشر، حثّ المشرّع الحكيم على التحرير المتدرج عبر المكاتب، مع مساعدة مالية لمن هم في وضع (ملك اليمين) لإعتاق أنفسهم: {وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ..} (النور: ٣٣). وكان أن جعل في ميزانية الدولة الإسلامية مخصصاً من المال لإعتاق الرقاب المستعبدة: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْعَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ^ط فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ^ط وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (التوبة: ٦٠). وبذلك أصبح إعتاق الرقاب من أسر الرق مسؤولية شرعية

جماعية تحملها الأمة بأسرها، ولا تقتصر على جهود فردية أو مبادرات شخصية. بل وكان أن جعل الله من إعتاق الرقيق كفارة للذنوب والمعاصي:

- **ففي القتل الخطأ قال تعالى:** {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا} فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} (النساء: ٩٢).

- **وفي الظهار قال:** {وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَاَ ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} (المجادلة: ٣).

- **وفي كفارة اليمين قال:** {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (المائدة: ٨٩).

وأنهى الشرع الحنيف أهم مصدرٍ للرق قديمًا، وهم أسرى الحروب، وذلك بأن جعل التعامل معهم محصورًا في هذين الخيارين: {..فَأَمَّا مَنْ بَعْدُ وَإِذَا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا..} (محمد: ٤). وخفف عقوبة الزنا على الفتيات من فئة ملك اليمين، فجعل عذابهن خمسين جلدة بدل مئة جلدة لغيرهن من الحرائر؛ وذلك مراعاةً للظرف الاستثنائي القاهر الذي وُجدن فيه، كما جعل نكاحهن مشروطًا برضاهن، وأن يُؤتَيْن أجورهن، وأن يكون بإذن أهلهن: {وَمَنْ لَّمْ يَسْتِطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (النساء: ٢٥).

وحرّم إكراههن: {..وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَعُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (النور: ٣٣). وقوله: {وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}؛ أي: العفو والغفران

للمكْرَهَاتِ، لا عليهن ذنب؛ إذ لا اختيار لهن، وإنما الإثم على من أكرههن وأجبرهن، فهو المحاسب دونهن.

وقد كان الحل القرآني لملك اليمين هو الحل الأمثل والأرقى والأنجع؛ ولو عادت تلك الظاهرة - لا سمح الله - فلن تجد البشرية بدءاً لعلاجها من العودة للحكم الظرفي الذي نزل في كتاب الله الخاتم. وعندما نقول: هو ظرفي؛ أي بمعنى أنه لا يُطبَّق إلا في حال تحقق الظروف التي تُفرض تلك الظاهرة، وفي انعدام وجودها لا يُلغى الحكم، وإنما يُعلَّق لحين الحاجة له. وكذلك الأمر مع أحكام القتال؛ فلا تُطبَّق إلا في حالة القتال، ولكن لا تُلغى في حالة السلام، وإنما تُعلَّق إلى حين مجيء ظرفها الذي يستوجب العمل بها. وهكذا.

ولذا حقّ لكل مسلم أن يفتخر بسبق الإسلام في تحرير الرقيق وإنهاء ظاهرة استعباد البشر بالشكل القديم؛ كما بقدرته على إنهاؤها في شكلها الحديث أيضاً؛ نعي الشكل الذي آلت إليه الأمور في الدولة الوطنية الحديثة. لقد صارت وثناً يُعبد من دون الله (تُرْتَكَب في سبيلها كل المحرّمات)، والحاكم إلهاً مع الله؛ والجند عبيداً بيد الحاكم يُسلّطهم على من يشاء وقت ما يشاء.

والناس في عجزٍ رهيبٍ مريعٍ إزاء هذا الواقع الفظيع؛ غير أن القرآن لا يعطي أعداءاً لأولئك الجنود عبيد الطواغيت، فلم يفرّق

سبحانه وتعالى بين فرعون وهامان وجنودهما إذ قال: {..إِنَّ
فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ} (القصص: ٨)،
فالحساب إذاً سيشمل الجميع، لا عذر لتابع أو متبوع. {النَّارُ
يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ
أَشَدَّ الْعَذَابِ * وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ *
قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ *
وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا
مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلِكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ
قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا
وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ
الظَّالِمِينَ مَعْدِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} (غافر:
٤٦-٥٢).

وآل فرعون هم كل أعوانه وأتباعه (وأشباههم على مرّ التاريخ
الإنساني، وإلى يوم القيامة)، لا فرق بين صغير أو كبير، أمر أو
مأمور.

ولا يوجد في الإسلام شيء من هذا القبيل، وهو أن يقول
أحدهم: "لقد قتلتُ أو ظلمتُ أو عذبتُ أحدًا أو قلعْتُ أظفاره
أو اغتصبتَه أو أو... إلخ تنفيذًا لأوامر عليا، وما أنا إلا عبد

مأمور"، فإن هذا عذرٌ واهٍ لا قيمة له، ومصير هذا المجرم المحتوم هو العذاب الأليم بإذن الله تعالى.

إن الطاغية أضعف من نملة لولا من حوله من عبيدٍ خاضعين لا يعصون له أمراً؛ فهم إذاً سلاحه الذي يستقوي ويبطش ويتأله ويواصل إجرامه به. فمن ظن أن عمله كجندي في صفوف جيوش الطواغيت ليس خطيئة يُحاسب عليها فقد خاب ظنه وخسر وفشل.

والعذاب ينتظر كل من قتل نفساً بغير حق. لا عذر لك يا جندي الطاغية أمام الله تعالى يوم الحساب؛ فسارع بالتوبة وألق سلاحك أو صوبه على الطاغية لا الصدور العارية. على أنك وإن تُبِت، فلن تنجو من عقاب الدنيا إن كانت قد تلطخت يدك بدماء الأبرياء المستضعفين.

إن القتال في الإسلام ليس في سبيل أوطان أو حكام أو أشياء مادية؛ وإنما هو في سبيل الله؛ أي سبيل رفع الإكراه عن الناس {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انتهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} (البقرة: ١٩٣)، {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انتهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (الأنفال: ٣٩)، وليكون الدين كله لله، لا بد لبلوغ ذلك

من خلق البيئة المناسبة، وهي البيئة الحرة التي يملك الإنسان فيها قراره، فيختار الإيمان أو الكفر دونما ضغط أو إكراه.

ولما جعل الله الإخراج من الديار مبررًا للقتال؛ فذلك لأن الإخراج ظلمٌ بواح؛ لذا كان القتال هنا قتالاً لرفع ذلك الظلم، كي يعيش الناس أحرارًا في ديارهم وفي كل مكان، وليس على أن المعنى هو أن القتال من أجل الديار من حيث هي حجارة وحدود وتراب؛ لا، فهذا فهم مقلوب غير معتبر. وإنما القتال هنا بوصفه رفعًا للظلم ودفعًا للعدوان، ليعيش كل إنسان في أي مكان بحرية وأمان. ويخشى الكثيرون فيقولون: إن لنا أقارب يعملون في جيش الطاغوت، فما العمل؟ هل نواجههم؟ والجواب واضح أيضًا: من ارتضى أن يكون جنديًا في جيش الطاغوت فلا يلومن إلا نفسه إن لقي حتفه على أيدي الجماهير الساعية لافتكاك حريتها وحقها في العيش بكرامة ومساواة في ظل نظام شوري عادل يستوعب الجميع ويحترم حقوقهم. ولذا فإن التردد والخوف ينبغي أن يكون من جهة الذين يقاتلون في صفوف الطاغوت، لا من جهة الذين لم يفعلوا شيئًا سوى أنهم أرادوا حريتهم التي منحها إياهم الخالق سبحانه.

ومن يصادر حرية غيره دون مبرر شرعي فهو يضع نفسه موضع الله جل وعلا، الذي وهب الإنسان -عند خلقه- تلك الحرية.

ولقد تحدثت مع كثيرين ممن يعملون لدى آل سعود، فوجدت أنهم يعلنون -دون أدنى تحرج- رغبتهم بقتلي، دون أن يكون لهم أي مبرر سوى أنني معارض لحكم الكفر والغصب والجور.

سنظل مستمرين في هذا السعي المقدس نحو تحرير الناس من عبادة العبيد إلى عبادة رب العالمين. إن السعي نحو مجتمع العبادية هو سعي مقدس بالنسبة لنا؛ لأنه في سبيل الله، وتعاليمه وشرعه.

ولذا؛ فإن من اعترض طريقنا بالعدوان والاستبداد والإجرام، فإن من أبسط حقوقنا التي كفلها لنا الشرع الحنيف أن ندافع عن حقنا في الحرية والكرامة والعدالة والشورى والمساواة.. بكل ما أوتينا من قوة.

ولو أن كل الناس قد خضعوا لإرهاب المستبدين، لما وصلت الإنسانية إلى ما وصلت إليه من ديمقراطية وحرية وجملة الحقوق والحرريات التي تُعد المنجز الحقيقي والأهم في مسيرة الإنسانية. ثم ما قيمة هذه الحياة إن كان الناس فيها يولدون ويموتون وهم فاقدون لأقدس المقدسات (نعني حرية الاختيار)؟ ماذا يبقى للإنسان إن هو فقد ما يميزه عن البهائم؟ لا شيء على الإطلاق؛ يغدو والبهيمية سيان.

لا يعود الإنسان إنساناً إذا جردته من حقه في الاختيار؛ هل تريد أن تحوّل إنساناً ما إلى مسخ؟ انتزع منه حقه في حرية الاختيار، واجعله يعيش وفق ما تريده أنت، لا ما يريده هو.

لنكن صادقين مع أنفسنا، ولنأمل حال الشعوب التي لم تذق يوماً طعم الحرية. لنراقب تصرفات أفرادها، وعاداتهم، وتقاليدهم، وأخلاقهم، وأفكارهم... إلخ؛ سترى العجب العجاب: مسوخاً بشرية، وآلاتٍ صمّاء تنفذ ما تؤمر به دون أي سؤال أو اعتراض أو حتى نقاش!

لقد عشنا في مجتمعات كهذه، ونعرف جيداً ما يعنيه أن يولد الإنسان ويحيا ويشيخ ويموت وهو لم يذق يوماً طعم الحرية، وبالتالي لم يعرف قيمتها ولا جوهريتها في جعله إنساناً ذا عقل وشعور. هل تريد إنساناً بلا عقل؟ انتزع منه حرّيته؛ لا يعود لعقله أي داعٍ.

لقد كرّم الله الإنسان بالعقل، ولكن هذا العقل، ما لم تكن لديه الفسحة للاشتغال والتفكير وتقليب الأمور وعقلنتها... ما لم تكن له تلك الحرية، فلا يعود لوجوده أدنى قيمة. لا يمكن لعقلٍ محجورٍ عليه أن يفكر ويبدع. لذا كان أن كرّم الله الإنسان بحرية الاختيار يوم كرّمه وميّزه بنعمة العقل؛ لأن الاثنين

لا ينفكان عن بعضهما. فحرية بلا عقل هي فوضى، وعقل بلا حرية هو عذاب لا يطيقه إنسان.

كما أن العقل ذاته، مع الحرية، يحتاجان إلى الإرشاد الإلهي؛ لذلك كان إنزال الكتب وبعث الرسل. فعقل لا يسترشد بالنور الإلهي يتيه لا محالة، وإن حقق بعض إبداع أو فكر، فإنه يظل قاصراً محتاجاً لنور الهداية الربانية. فالعقل إذاً لا غنى له مطلقاً عن الوحي الإلهي، مهما ادعى المبطلون. قال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفُوا فِيهِ وَمَا اختلفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اختلفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (البقرة: ٢١٣). [٤].

ولذا فإنه تعالى قد ذمَّ الأكثرية من الناس في آياتٍ عديدة ما لم يكونوا مؤمنين بالله شاكرين له غير غافلين عن ذكره سبحانه؛ إذ إن معيار الحق في الإسلام لا تحدده الأكثرية وحدها، ولا العقل وحده، ولا لكون الإنسان حراً فقط.

{أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ* وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا

مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} (الأنعام: ١١٤-١١٦). «إلى جانب تقرير أن {الحق} هو ما تضمنه الكتاب الذي أنزله الله، يقرر أن ما يقرره البشر وما يرونه إن هو إلا اتباع الظن الذي لا يقين فيه؛ واتباعه لا ينتهي إلا إلى الضلال. وأن البشر لا يقولون الحق ولا يشيرون به إلا إذا أخذوه من ذلك المصدر الوحيد المستيقن؛ ويحذر الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن يطيع الناس في شيء يشيرون به عليه من عند أنفسهم؛ مهما بلغت كثرتهم؛ فالجاهلية هي الجاهلية مهما كثرت أبقاعها الضالون.

ولقد كان أكثر من في الأرض -كما هو الحال اليوم بالضبط- من أهل الجاهلية.. لم يكونوا يجعلون الله هو الحكم في أمرهم كله، ولم يكونوا يجعلون شريعة الله التي في كتابه هي قانونهم كله. ولم يكونوا يستمدون تصوراتهم وأفكارهم، ومناهج تفكيرهم ومناهج حياتهم من هدى الله وتوجيهه.. ومن ثم كانوا -كما هو الحال اليوم- في ضلالة الجاهلية؛ لا يملكون أن يشيروا برأي ولا بقول ولا بحكم يستند على الحق ويستمد منه؛ ولا يقودون من يطيعهم ويتبعهم إلا إلى الضلال.. كانوا -كما هم اليوم- يتركون العلم المستيقن ويتبعون الظن والحدس..

والظن والحدس لا ينتهيان إلا إلى الضلال.. وكذلك حذر الله رسوله من طاعتهم واتباعهم كي لا يضلوا عن سبيل الله». [سيد قطب، في ظلال القرآن].

ومن هذا نفهم أن العقل والحرية لا تكفيان وحدهما في غياب الإطار الحاكم الهادي وهو الوحي الإلهي؛ فنعم، نقول بضرورة إعمال العقل (وهو وسيلة الفهم والتدبر) والسعي إلى الحرية والشورى والديمقراطية، ولكن في إطار حاكمية الله تبارك وتعالى.

وذمُّ الأكثرية في تلك الآيات لا يعني بالضرورة أن الله قد حكم على أكثر الناس بأنهم لا يؤمنون ولا يشكرون.. إلخ، وإنما هو نهْيٌ في شكل إخبارٍ بحقيقة تتكرر في التاريخ باختيار من الناس لا بالجبر والجِبَلَّة؛ فمثلاً في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (يوسف: ١٠٦)، هو وصفٌ واقعي يتكرر باستمرار على مدى التاريخ «فحتى الذين يؤمنون، كثير منهم يتدسس الشرك -في صورة من صورهِ- إلى قلوبهم. فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة تنفي عن القلب أولاً بأول كل خالجة شيطانية، وكل اعتبار من اعتبارات هذه الأرض في كل حركة وكل تصرف، لتكون كلها لله، خالصة له دون سواه. والإيمان الخالص يحتاج إلى حسم كامل في قضية السلطان

على القلب وعلى التصرف والسلوك فلا تبقى في القلب دينونة إلا لله سبحانه، ولا تبقى في الحياة عبودية إلا للمولى الواحد الذي لا راد لما يريد» **سيد قطب، في ظلال القرآن**، ولكنه لا يعني أن الإنسان لا يملك الحرية لكي يتجنب أن يكون من هذه الأكثرية التي تُشرك بالله وهي تدّعي الإيمان؛ فهي إخبارٌ بحقيقة واقعة وتحذيرٌ واضح، ولكن ليس معناها أن ذلك قدرٌ لا مناص منه على كل إنسان، وإلا فأين حرية الاختيار التي على أساسها يكون الحساب؟

إذًا؛ فالحرية المصحوبة بعقل حيوي، مستجيب للأمر الإلهي، هي عناصر خلق الإنسان الحقيقي الرباني، وهذا ما يميز مجتمع العبادية لله. وإن الذي يجترئ على مصادرة حرية الإنسان فإنه يعترض على قرار الله سبحانه وتعالى، الذي {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} (الأنبياء: ٢٣).

وعليه؛ فإن غياب الحرية في مجتمع يدّعي الإسلامية كفيل وحده بنقض تلك الدعوى، ولو كان الناس فيه يصلّون ويصومون ويحجّون ويتلون القرآن آناء الليل وأطراف النهار.

إن وجود الحرية هو شرطٌ أوليٌّ لتحقيق مجتمع العبادية لله؛ وكما أنه لا يمكن أن يوصف إنسان أو مجتمع ما بالإسلام والإيمان وهو فاقدٌ لحرّيته في الاختيار، فإن هذا ما ينطبق على (البيعة

السياسية كذلك). فمادام الإنسان فاقداً لخيار رفض البيعة فإن بيعته حينئذ لا تصح.

وأذكر نقاشاً دار بيني وبين أحد المسعودين؛ قال إن في أرقابنا بيعة لآل سعود إلى يوم القيامة.

فقلت له: هل كان عندك منذ الأصل الخيار في عدم مبايعتهم ثم اخترت أنت مبايعتهم رضا واقتناعاً؟ وكيف كان شكل البيعة؟ قال: آباؤنا بايعوهم وبيعتهم أمانة في أعناقنا. قلت له: لا يزال السؤال مطروحاً، فهل كان لآبائك الخيار في عدم مبايعتهم لو أرادوا؟ فبهت الذي كفر.

هذا بالطبع مع عدم اعترافنا بما يسمونه في الكيان السعودي بـ"البيعة" -والتي ليست سوى طقس وثني ضمن طقوس أداء فروض الولاء والطاعة لكل غاصب يرث الحكم ممن قبله- فلا بيعة إلا باختيار، ومادام الاختيار معدوماً فلا بيعة إذًا، وإنما هو الغصب والإكراه. وهذه حقيقة كيان آل سعود منذ قام، ولم يتم إلا بعد أن كفروا المسلمين في عموم جزيرة العرب والعالم أيضًا، واستباحوا أعراضهم وأموالهم وديارهم، ثم حكموهم بقوة السيف لا عن طريق الاختيار، ثم بعد ذلك كله يقولون: "إنما نحن نحكمم وفقًا للقرآن والسنة، وقد اختارنا الله لذلك!"

ولا يمكن عقلياً أن يختار الناس، إذا كانت لديهم حرية الاختيار، عائلة أو سلالة تستبد بهم، وتحتكر الملك العام من مالٍ وسلطانٍ دونهم، وتتوارث العباد كما لو كانوا قطعاً من المتاع. وإن اختار الناس ذلك فقد سقط وصف الإسلام عنهم بلا ريب؛ لأن من ارتضى أن يُسلم نفسه تسليمًا مطلقاً لغيره (كما الحال في الكيان السعودي) فقد أشرك بالله وضلّ ضلالاً بعيداً. فلا تسليم كامل ولا انقياد تام لأحد، ولا طاعة مطلقة لغير الله تبارك وتعالى.

ولقد زاد آل سعود الأمر فظاعةً بأن جعلوا الناس يُنسبون إليهم انتساب الشيء إلى صاحبه؛ فغدوا "سعوديين" بعد أن كانوا مسلمين. ويا لها من كارثة، ويا له من عار تتقزز منه نفوس الأحرار.

إن من حقائق الاجتماع البشري الناصعة الفاقعة، والتي أثبتتها التجربة البشرية على مدى تاريخها، فلم تتخلف عن أن تتكرر في كل مرة، هي أن الإنسان ما إن يخضع ولو لمرة واحدة لإنسان آخر مثله، حتى تنفلت بعد ذلك دورة الاستعباد والخضوع بلا توقف؛ فلا المستعبد يتوقف عن استعباده، ولا الخاضع عن خضوعه، وكلما زادت الاستجابة زاد الإذلال، وهكذا دون توقف..

لذا فإن اللوم بالدرجة الأساس واقع على الجهة التي تخضع
لغيرها بأي صورة كانت، وتستجيب لتهديداتها أو حتى
لمغرياتها. إنه لا يحق لإنسان على الإطلاق -ولا يليق به وقد
خلقه الله حرّاً- أن يخضع لغير خالقه جل جلاله؛ ذلك لأنه هو
وحده لا شريك له المستحق للعبادة، بما هي تسليم كامل،
وانقياد تام، وطاعة مطلقة.

إلى ماذا ندعو؟

[IX]

نحن ندعو إلى مجتمع العبادية لله؛ الذي لا تقسيم فيه للناس بين سادة وعبيد، "أشراف" وغير أشراف، والذي يعني أن الكل سواء، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى؛ فلا تمييز فيه إذاً بين الناس على أساس اختلاف الألوان أو اللغات أو الأعراق والأنساب، ولا إقصاء أو تهميش، والكل فيه حرٌّ مصون الكرامة والحقوق التي أقرتها الشريعة الغراء.

والذي يكون الكل فيه خاضعاً للمساءلة والحساب، فلا يترفع عنها مخلوق. ولأن الناس كلهم في هذا المجتمع عباداً لله وحده؛ فلا بد أن يكونوا متحررين من كل عبوديات البشر وإكراهاتهم، ويسعوا لذلك ما استطاعوا، فيبقوا في حالة ثورية دائمة متواصلة لا تنقطع، تتوارثها الأجيال جيلاً عن جيل، غايتها ألا يُعبد أحدٌ غير الله.

• في مجتمع العبادية لا توجد فئة (أسرة، أو سلالة، أو قبيلة، أو حزب، أو طائفة) من المجتمع تحتكر أمر جماهير الأمة؛ وإنما الأمر - كما هو واضحٌ وصريحٌ في كتاب الله- شورى ومشاعٌ بينهم. ولأنه من المستحيل أن يحكم الناس كلهم في نفس الوقت بشكل مباشر، فإن التمثيل يكون خير وسيلة. لذا سمى الله أولئك الذين يمثلون الأمة بـ«أولي الأمر منكم»، فاشتراط أن

يكونوا من الأمة؛ أي نابعين مختارين منها، لا مفروضين ولا مُعَيَّنِينَ عليها.

ووصفهم بـ«أولي الأمر» لا يعني أنهم أصحاب الأمر وحدهم، بل لأنهم من وُلُوهِ من قِبَل جماهير الأمة، أي هم مجرد مفوَّضين من قبل أصحاب الأمر الحقيقيين، وهم جماهير الأمة في كل تجمّع لها في أي بقعة جغرافية في العالم.

• في مجتمع العبادية يُستوعب العالم كله بأعراقه وأديانه ولغاته وألوانه، ما دام الكل مسالماً وراضياً بحكم شرع الله. ولأنه مجتمع عالمي إنساني يتوقف الانتماء إليه على شرطين وحيدين هما: المسالمة والرضا بحكم شرع الله؛ فإنه لا يعود هنالك أي مسوِّغ بعدئذ لتقسيم الناس بين أغلبية وأقلية؛ الكل سواء، والتنوع قوة وجمال وثراء. الأهم أن يكون الناس سالمين مسالمين غير محاربين لله والرسول. أما الأغلبية والأقلية في موضوعات فرعية كالصويت على مشاريع قوانين أو غيرها مما لا يهدد بنية مجتمع العبادية العالمي، فذلك لا إشكال فيه، وهو أمر طبيعي.

• في مجتمع العبادية لله، المالُ مالُ الله، استخلف فيه الأمة، فتكون هي المسؤولة عنه، بأن تضطلع بمهامها في المراقبة والمساءلة والمحاسبة لمن يتولى شؤونه. في هذا المجتمع الذي لم يخضع سوى لرب العالمين، الفقراء والمحتاجون والمساكين

وعابرو السبيل والمهاجرون واللاجئون مكفولون مرعيون بأمرٍ إلهي، لهم حق في مال الله الذي استخلف فيه الأمة. ولهذا فمجتمع العبادية لله هو مجتمع التكافل والعدالة والرحمة والكفاية للجميع، فلا يكون فيه فردٌ واحد لا يجد قوت يومه، أو لا يجد سقفًا يظله، أو ملبسًا يستره. لذا كانت الكفاية شرطًا أساسيًا هنا لتحقيق العدالة؛ أي أن يحصل كل إنسان (سواء كان باحثًا عن عمل أو عاجزًا عنه) على كفايته من أساسيات الحياة: من طعام وشراب وملبس ومسكن وعلاج وتعليم. وهو مجتمع للمهاجرين في سبيل الله من كل أصقاع الأرض؛ بشتى ألوانهم وأعراقهم وألسنتهم، ينصهرون في بوتقة واحدة هي بوتقة هذا الإسلام.

وحتى غير المسلمين داخل هذا المجتمع حقهم محفوظ، وممارستهم لدياناتهم مصونة، ولهم أن يبنوا معابدهم ويحتفلوا بأعيادهم دون أن يُضَيَّقَ عليهم أحد؛ لأن ذلك واجبٌ إسلامي يقع على عاتق كل فرد مسلم. فمن استأمننا أمن على نفسه وماله وعرضه وحريةته.

لقد أمرنا الله جل وعلا بالإحسان إلى من لم يعتد علينا، وحثنا على البر بهم والإقساط إليهم: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا

إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } (الممتحنة: ٨)، وهو أرقى درجات الإحسان في التعامل بين البشر. فأى مجتمع في العالم كله تكون في عقيدة كل فرد من أفراده مسؤولية حماية المخالفين له دينياً والبر بهم، فقط لأنهم سالموه ولم يعتدوا عليه؟

إسلام جاهلي!

لقد كان أكبر أذى تعرّض له هذا الدين ممن يدّعون أنهم ينتسبون إليه -وأعني العرب منهم على وجه الخصوص- هو أنهم صدّروا للعالم نسخةً قوميةً خاصةً منه، ليست هي حقيقته التي وردت في كتاب الله تبارك وتعالى.

لقد أسبغ العرب على الإسلام طابعاً محلياً قومياً قبلياً جاهلياً، وجعلوا منه كما لو أنه دين أتى لهم وحدهم من دون الناس!

وقد وصل الاجترار على دين رب العالمين ببعضهم إلى أن قالوا: إن العرب أفضل الناس، وباقي الأعراق دونهم.

ثم قالوا: وقبيلة النبي أعلى من باقي قبائل العرب وأشرفها وأحكمها... إلخ، حتى وصل بهم الخبل والهوس القومي الجاهلي العربي إلى أن قالوا إن الحكم في قريش وحدها،

تتوارثه جيلا بعد آخر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومن عداهم فليسوا أكثر من مجرد أتباع مخصيين خاضعين، يُساقون إلى حتفهم في خضوع تام واستسلام مطلق.

ولذا فلا يُستغرب حتى من مظهر المسلمين غير العرب، وهم يرتدون الثياب العربية كما لو أنها جزء من الدين! وقد شاهدتُ منهم في أوروبا من يرتدي الثوب قبل أن يذهب إلى المسجد، ويضع على رأسه القلنسوة قبل أن يصلي، دون أن يفهم شيئاً مما يفعله! هكذا رأى الناس من حوله، أو هكذا أشعروهم بأن المسلم عربيٌّ بالضرورة، ولو بالمظهر كحدٍّ أدنى! وهذا افتراء على دين الله، وتلبيس على عامة المسلمين، وخداع لا يُغتفر.

الإسلام دين الله الذي ارتضاه للعالمين، وليس هو حكرًا على العرب دون غيرهم، ولا جاء ليجعلهم جنسًا فوق بقية الجنس البشري. ثم إن الإسلام هو دين كل الأنبياء، فأكمل وختم بمحمد ﷺ ولم يُبتدأ به. قال تعالى: {..الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا..} (المائدة: ٣)، وقال تعالى: {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} (الأحزاب: ٤٠). وقال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} (آل عمران: ١٩)، وقال: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا

فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (آل عمران: ٨٥).
 وقال نوحٌ عليه السلام: {وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}
 (يونس: ٧٢). والإسلام هو الدين الذي أمر الله به أبا الأنبياء
 إبراهيم عليه السلام: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ
 الْعَالَمِينَ} (البقرة: ١٣١). ويوصي كلُّ من إبراهيم ويعقوب
 أبناءه قائلاً: {فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} (البقرة: ١٣٢)؛
 وأبناء يعقوب يُجيبون أباهم: {نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ
 وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (البقرة:
 ١٣٣). وقال يوسف عليه السلام: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ
 وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ
 وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}
 (يوسف: ١٠١).

وقال موسى عليه السلام: {يَا قَوْمِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ
 تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} (يونس: ٨٤). وقالت السحرة: {رَبَّنَا
 أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} (الأعراف: ١٢٦). وقالت
 بلقيس: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ} (النمل: ٤٤). وقال الحواريون - لعيسى عليه السلام:
 {آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} (آل عمران: ٥٢). وحين سَمِعَ
 فريقٌ من أهل الكتاب القرآن: {قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا

كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ} (القصص: ٥٣). وقال الله تعالى - لِخَاتَمِ
الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي
وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ
وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، «ومعلوم أنه ليس
أولاً لكل مسلم، فيجب أن يكون المراد كونه أولاً لمسلمي
زمانه». [التفسير الكبير، مفاتيح الغيب]، ولأنه دين للعالمين بعث به كل
الأنبياء والمرسلين، فإنه بريء من كل ما ألصق به مما هو من
عادات وتقاليد الجاهلية والقبلية العربية.

وإن واجبنا اليوم -ونحن نسعى سعينا المقدس نحو مجتمع
العبادية لله- أن نجلي حقائق هذا الدين، ونوقف عمليات
التحريف والتلبيس التي يتعرض لها منذ قرون وقرون، بل منذ وفاة
الرسول الخاتم ﷺ وحتى يومنا هذا.

ومن سمات هذا الإسلام العربي الجاهلي القبلي هو وضع
المرأة فيه، وتعامل أتباعه معها، ونظرتهم إليها، وقد وصف الله
تعالى ذلك أدق وصف، عندما قال عن الرعيل الأول منهم:
{وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ لَا لَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ
أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ
مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَّا

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ
الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ { (النحل: ٥٧-٦٠)، «إن
الانحراف في العقيدة لا تقف آثاره عند حدود العقيدة، بل
يتمشى في أوضاع الحياة الاجتماعية وتقاليدها. فالعقيدة هي
المحرك الأول للحياة، سواء ظهرت أو كمنت. وهؤلاء عرب
الجاهلية كانوا يزعمون أن لله بنات -هن الملائكة- على حين
أنهم كانوا يكرهون لأنفسهم ولادة البنات! فالبنات لله أما هم
فيجعلون لأنفسهم ما يشتهون من الذكور! وانحرافهم عن
العقيدة الصحيحة سول لهم وأد البنات أو الإبقاء عليهن في
الذل والهوان من المعاملة السيئة والنظرة الوضيعة. ذلك أنهم
كانوا يخشون العار والفقر مع ولادة البنات.

إذ البنات لا يقاتلن ولا يكسبن؛ وقد يقعن في السبي عند
الغارات فيجلبن العار، أو يعشن كلاً على أهليهن فيجلبن الفقر.
والعقيدة الصحيحة عصمة من هذا كله... ثم إن الإنسان
بجنسيه كريم على الله، والأنثى -من حيث إنسانيتها- صنو
الرجل وشطر نفسه كما يقرر الإسلام.

ويرسم السياق صورة منكرة لعادات الجاهلية: {وإذا بشر
أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم} مسوداً من الهم
والحزن والضيق، وهو كظيم، يكظم غيظه وغمه، كأنها بلية،

والأنثى هبة الله له كالذكر، وما يملك أن يصور في الرحم أنثى ولا ذكرا، وما يملك أن ينفخ فيه حياة، وما يملك أن يجعل من النطفة الساذجة إنسانا سويا. وإن مجرد تصور الحياة نامية متطورة من نطفة إلى بشر - بإذن الله - ليكفي لاستقبال المولود - أيا كان جنسه - بالفرح والترحيب وحسن الاستقبال، لمعجزة الله التي تتكرر، فلا يبلي جدتها التكرار! فكيف يغتم من يبشر بالأنثى ويتوارى من القوم من سوء ما بشر به وهو لم يخلق ولم يصور. إنما كان أداة القدرة في حدوث المعجزة الباهرة؟ وحكمة الله، وقاعدة الحياة، اقتضت أن تنشأ الحياة من زوجين ذكر وأنثى. فالأنثى أصيلة في نظام الحياة أصالة الذكر؛ بل ربما كانت أشد أصالة لأنها المستقر.

فكيف يغتم من يبشر بالأنثى، وكيف يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ونظام الحياة لا يقوم إلا على وجود الزوجين دائما؟ إنه انحراف العقيدة ينشئ آثاره في انحراف المجتمع وتصوراتها وتقاليده.. {ألا ساء ما يحكمون} وما أسوأه من حكم وتقدير.

وهكذا تبدو قيمة العقيدة الإسلامية في تصحيح التصورات والأوضاع الاجتماعية. وتتجلى النظرة الكريمة القويمية التي بثها في النقوس والمجتمعات تجاه المرأة، بل تجاه الإنسان. فما كانت المرأة هي المغبونة وحدها في المجتمع الجاهلي الوثني

إنما كانت "الإنسانية" في أخص معانيها. فالأنثى نفس إنسانية، إهانتها إهانة للعنصر الإنساني الكريم، ووأدها قتل للنفس البشرية، وإهدار لشطر الحياة؛ ومصادمة لحكمة الخلق الأصيلة، التي اقتضت أن يكون الأحياء جميعا -لا الإنسان وحده- من ذكر وانثى. وكلما انحرفت المجتمعات عن العقيدة الصحيحة عادت تصورات الجاهلية تطل بقرونها.. وفي كثير من المجتمعات اليوم تعود تلك التصورات إلى الظهور.

فالأنثى لا يرحب بمولدها كثير من الأوساط وكثير من الناس، ولا تعامل معاملة الذكر من العناية والاحترام. وهذه وثنية جاهلية في إحدى صورها، نشأت من الانحراف الذي أصاب العقيدة الإسلامية.

ومن عجب أن ينعت الناعقون بلمز العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية -في مسألة المرأة-، نتيجة لما يرونه في هذه المجتمعات المنحرفة ولا يكلف هؤلاء الناعقون اللامزون أنفسهم أن يراجعوا نظرة الإسلام، وما أحدثته من ثورة في التطورات والأوضاع. وفي المشاعر والضمائير. وهي بعد نظرة علوية لم تنشئها ضرورة واقعية ولا دعوة أرضية ولا مقتضيات اجتماعية أو اقتصادية. إنما أنشأتها العقيدة الإلهية الصادرة عن الله الذي كرم الإنسان، فاستتبع تكريمه للجنس البشري تكريمه

للأنثى، ووصفها بأنها شطر النفس البشرية، فلا تفاضل بين الشطرين الكريمين على الله». [سيد قطب، في ظلال القرآن].

وما زالت المرأة المسلمة حتى يوم الناس هذا أسيرة وضحية لتلك العادات والأفكار والمعاملة والنظرة الجاهلية لها التي يُلصقها الجهلة بالإسلام، وهو بريء منها براءة الذئب من دم يوسف.

ولم تتوقف مساعيهم، فانظر كيف حاولوا ولا يزالون أن يجعلوا من غطاء الرأس أو الحجاب المعروف زياً إسلامياً تُطالب المرأة المسلمة في كل مكان من العالم بالالتزام به، رغم عدم ورود أي نص في كتاب الله يحث على تغطية الرأس أصلاً، وإنما المأمور بتغطيتها هي الجيوب، والرأس ليس جيباً لغةً وقرآناً. وهو من الزينة الظاهرة التي أباح الله ظهورها (استثناء): {.. وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا..} (النور: ٣١). وليس هو من الزينة المخفية التي وردت النصوص بإحكام التغطية لها وإدناء الجلابيب عليها.

فكيف أصبح معنى {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ} دليلاً على غطاء الرأس؟ ولا حتى قوله تعالى: {..يُدْنِينَ عَلَيْنَهُنَّ مِنَ الْجَلَابِيبِ..} (الأحزاب: ٥٩)؛ فالجلباب هو لباس خارجي فضفاض يغطي الجسد، ولا يوضع على الرأس، ولذا فإدناؤه

يكون من الكتفين فأسفل، والرأس غير مشمول به قطعاً. ولكن الذي حدث أن جعلوا لباس المرأة العربية قبل قرون طويلة هو لباس المرأة المسلمة في كل مكان وأي زمان، وأصبحت النساء اللواتي لا يلتزم به كاسياتٍ عارياتٍ فاسقاتٍ إلى آخر سلسلة التهم المعروفة.

وبعد أن كانت المرأة المسلمة تعيش في تكامل مع الرجل، حيث كلُّ منهما يكمل الآخر، وكلاهما مسؤول وفاعل في المجتمع {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (التوبة: ٧١)، وفي تساوي المسؤولية دون أي تفريق حتى على مستوى الخطاب {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} (الأحزاب: ٣٥)، أصبحت المرأة -في عصور لاحقة- تابعة للرجل، وناقصة عقل، وكلها عورة، وكاد ينعدم وجودها في الحياة العامة بأسرها، وحُرِّمت عليها المناصب

القيادية بعد أن افتروا على الرسول أنه قال (حاشاه): «ما أفلح قومٌ ولو أمرهم امرأة». بينما في مجتمع العبادية لله، المرأة غير مطموسة ولا مخبأة تحت أكوام من الأقمشة، وليست هي عورة ولا ناقصة عقل ولا دين، وإنما هي مع الرجل يكمل بعضهما الآخر، وهي حاضرة في كل مجالات الحياة، ولها كامل الحق في الوصول إلى المناصب القيادية المنتخبة، ولا يوجد نص قرآني واحد يحرم عليها ذلك.

ولم يُحدّد الله تبارك وتعالى جنسًا بعينه عندما قال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ.. } (النساء: ٥٩)، وإنما جاء الخطاب عامًا شاملًا للرجال والنساء على حد سواء. ومن قال بغير ذلك -أي إن أولي الأمر هم الذكور حصراً- كان معناه أن الخطاب لا يشمل النساء، وبالتالي لسن مُلزمات بالنص كله لأنهن غير مخاطبات به أصلاً، ولم يقل بهذا عاقلٌ على حد علمي.

في مجتمع العبادية لله المرأة حرة، فاعلة، ومبادرة، وقيادية، وجريئة، وحاضرة في شتى الميادين وعلى مختلف المستويات. فلم يفرّق الإسلام بين الذكر والأنثى في الدنيا كما لم يفرّق بينهما في الآخرة. قال تعالى: { فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ۖ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ

فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا
وَقُتِلُوا لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ { آل
عمران: ١٩٥}، وقال عزّ من قائل: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ
أَوْ أُنْشِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (النحل: ٩٧)، وقال سبحانه: {وَعَدَ
اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ
أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (التوبة: ٧٢).

فالمراة إذا حاضرة في الحياة العامة في مجتمع العبادية لله:
سياسيًا، واقتصاديًا، واجتماعيًا، وثقافيًا، وإيمانًا. وكل ما وضعه
المشرع هو أن تلتزم بضوابط الحشمة والعفة، دون أن تدفن
نفسها تحت أكوام من الأقمشة، وأن تغضّ البصر كما هو الأمر
مع الرجل أيضًا، لقوله تعالى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ
وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ *
وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...}
(النور: ٣٠-٣١). وغضّ البصر تعبير لطيف يدل على التهذيب
والرقي في التعامل بين الجنسين، ولا يعني عدم النظر مطلقًا،
وإنما عدم إطالة النظر في غير حاجة.

لذلك نستنكر المشاهد المقززة التي تظهر لنا في وسائل الإعلام عندما يظهر الذكر وهو يتجنب النظر كلياً إلى محاورته بدعوى غضّ البصر؛ فلا علاقة لهذا بالإسلام أبداً، وإنما هو رجعية وذكورية، ومن بقايا العقد والأمراض الجاهلية.

وفي مجتمع العبادية الزواج سكنٌ وطمانينةٌ ومودةٌ ورحمةٌ، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (الروم: ٢١). وخيرٌ ما يقدمه الآباء والأمهات لأبنائهم وبناتهم أن يكون الزواج قائماً من أساسه على المودة والرحمة والإحسان والاحترام المتبادل؛ لا الاستعلاء ولا التكبر ولا العسف والتسلط.

وفي مثل هذا الجو من الحب والرحمة والعطف والحنان يمكن للمجتمع أن يطمئن على سلامة أجياله القادمة من العقد والاضطرابات النفسية التي تفتك بمجتمعات العنف والجفاف والغلظة والقسوة. وليس في مجتمع العبادية أن للرجل الحق في الزواج من أربع متى شاء وكيفما شاء (وهذه قضية لطالما ركّز عليها أعداء الدين جاعلين منها قضية القضايا، وينسون أن الإسلام لم يبتدئها، بل قيدها وضبطها ووضع لها غاية راقية تتمثل في رعاية اليتامى وأمهاتهم)، وإنما لها شروط واضحة

حددها النص القرآني، فجعل اللجوء إلى التعدد أمرًا استثنائيًا وطارئًا لا أصلًا ولا محببًا؛ وغايته واضحة هي رعاية اليتامى وأمهاتهم، لا سيما في أزمنة الحروب والمجاعات.

فيقول عزّ من قائل: {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ مَنِّي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَذْنَىٰ ۗ أَلَّا تَعُولُوا} (النساء: ٣)، فكان واضحًا أن مبرر التعدد هو الخشية من عدم القدرة على الإحسان لليتامى إلا بالزواج من أمهاتهم. فإذا تحققت إمكانية الإحسان لهم دون زواج فلا مانع، وهو وارد. وهو (التعدد) إن تم فلا يتم دون علم وموافقة الزوجة الأولى، وذلك حقها، ولها أن تخلع زوجها إن أرادت.

ففي مجتمع العبادية لله ليست المرأة عبدةً لدى زوجها، وليس هو يتحكم بها ويستبد بحياتها، بل جعل الله لها من الحقوق ما لم تصل إليه أرقى أنظمة الدنيا؛ فلها إذا الحق في أن تفتدي نفسها (ما يسمى بـ "الخلع") إن أرادت لقوله تعالى: {...فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (البقرة: ٢٢٩)، لأن الزواج في الإسلام ليس إكراهًا ولا إجبارًا، بل هو نتيجة رضا واختيار ومحبة. فإن تعدد ذلك

فقد قال تعالى: {..فَأَمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ..} (البقرة: ٢٢٩)، وقال (إن تم الطلاق): {..وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (البقرة: ٢٣٧).

وأما ما يُثار من اعتراضات على قوله تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لَلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا} (النساء: ٣٤)، باعتبار أن الضرب أمرٌ مهينٌ للمرأة وقسوةٌ غير مبررة، فإننا نوضح ذلك بالقول: أولاً: قوله {الرجال قوامون على النساء..}؛ فالمعنى للقومة هنا القيام بعبء ومسؤولية الإنفاق والعناية والحماية.. إلخ، لا الاستعلاء والتسلط وممارسة الفوقية الذكورية. ثانياً: إن الضرب هو للمرأة الناشز، وهي من لا تحفظ غيب زوجها وتظهر منها بوادر خيانة.

والضرب هو الحل الأخير، ومحكوم بإطار العلاقة الزوجية في الإسلام (سكن ومودة ورحمة ومعروف، فلا جرح ولا إهانة، ويكون في السر لا أمام الأبناء أو غيرهم، وهو عتاب وإنذار أخير لا أكثر)، ويمكن للمرأة أن تخلع زوجها قبل الوصول إلى هذا

الحد من الأصل. والآية أباحت الضرب كخيارٍ أخيرٍ محكومٍ بطبيعة الزواج في الإسلام، ولم تأمر به، وهي لحالةٍ شاذةٍ وليست لعموم النساء. وهذه الآية لن تغضب العفيفة الحافظة للغيب، فلذا لا أدري لمَ قد تعتبر بعض النساء فيها عنفاً أو إهانة، وهي غير مقصودة بها أصلاً، إلا إن كانت ناشراً بالمعنى الذي جاء في الآية.

والنشوز كما ذكرت ليس هو عدم الطبخ أو الخروج من غير إذن الزوج، لا، وإنما هو متعلق بما هو أخطر بكثير، كمثال: من تُدخل رجلاً غرباء إلى البيت في غيبة زوجها، فهذا لا يقبل به رجل على وجه الأرض إلى قيام الساعة. والطاعة متعلقة بما لا يخالف ما أمر الله به (الطاعة المطلقة لله وحده)، وبما يرضي الطرفين ضمن دائرة {فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان}.

نموذج المرأة في مجتمع العبادية لله هو نموذج المرأة الحرة، المستقلة، العاقلة، المسؤولة، القادرة على اتخاذ القرار المناسب لها ولمن تعول؛ فليست هي قاصراً تحتاج إلى ولي أمر تعود إليه في كل مرة وعند كل قرار في حياتها الشخصية.

ومجتمع العبادية لله هو مجتمع تقدّمي، ثوري، تشاركي؛ وهو هكذا طوال الوقت، بمعنى أنه تقدّمي في كل مرحلة تاريخية،

وهو ثوري باستمرار دون انقطاع ، وهو تشاركي تعاوني في الملك العام من مالٍ وسلطانٍ ؛ فلا يوجد فيه من يحتكر السلطة أو المال دون غيره، وإنما هي مشاع بين الناس على حد سواء.

(وليس معنى هذا أنه لن يوجد أغنياء؛ ولكن ليس على حساب الفقراء والمحتاجين والطبقات الكادحة. ونحن لا نقول إن المجتمع كله سيصبح ثرياً؛ سيظل هنالك التفاوت والتفاضل في الرزق، وذلك عائد لنشاط كل إنسان وظروفه، لا أن الغنى أو الفقر قدر أزلي لا مناص منه على (س) أو (ص) من الناس.

ولكن ما نعنيه هو أنه يجب ألا يوجد أحد -مهما كانت حالته- في المجتمع يعيش تحت خط الفقر؛ لذا كان مجتمع العبادية لله هو مجتمع العدل والكفاية والمساواة في الفرص للجميع دون تمييز، فيأخذ كل فرد كفايته، وفي نفس الوقت لا يُحرم من يسعى للغنى من ذلك الحق، وهذا هو العدل، على أن يعي مسؤولياته تجاه مجتمعه والإنسانية، ولا يكون هنالك تمييز أو محسوبيات أو غيرها.

وهذا يعني أن يتساوى الناس في الفرص المتاحة، فلا يُهمَّش صاحب الكفاءة -مثلاً- لصالح صاحب المحسوبية!. ولكونه مجتمعاً ثورياً، فهو في حراك متواصل على كل المستويات،

ويقظة دائمة، ووعي متنامٍ؛ فلا يجد مستبد أدنى فرصة
للانقضاض عليه والفتك به، ولو بذل ما في وسعه.

لا محل -مطلقاً- في مجتمع العبادية للطغاة، كما لا مكان
للعبيد أيضاً؛ لأنه مجتمع أُفرد الله فيه بالعبادة وحده، فتنحصر
كل من فيه، ولم يعد هنالك سوى أحرار وحرائر، لا غير.

وفي مجتمع العبادية لله، البيئَةُ وكلُّ خلق الله محلُّ عنايةٍ ورحمةٍ
واهتمام؛ لذا فإن الحفاظ على البيئَة والتعاون مع كل الجهات
الساعية لمكافحة ما بات يُعرف بـ"ظاهرة التغير المناخي"
والتلوث في العالم ككل، والتكفل ضد "سباق التسلح النووي"
-على أن يشمل الدول الكبرى في العالم، ويبدأ بها-، هو جزءٌ
من اعتقاد مجتمع العبادية، كما الرفق بالحيوان، ومكافحة
ظاهرة الحيوانات الضالة عبر توفير البيئات والبرامج المناسبة لها -
كما يحدد ذلك المختصون في هذا المجال.

إننا نعتبر أن كل ذلك من مسؤوليات مجتمع العبادية، ومن
الواجبات عليه بلا أدنى ريب، ويُحاسب عليه يوم القيامة. كيف
لا وقد حرّم الله تعالى الإفساد في الأرض وإهلاك الحرث
والنسل، وذمّ من يفعل ذلك وتوعّده بجهنم والعياذ بالله.. قال
جل وعلا: {وَمَنْ النَّاسُ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ
فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الْفُسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ
وَلَيْسَ الْمِهَادُ (البقرة: ٢٠٤-٢٠٦)..

وبما أن الإنسان لا يجد الحد الأدنى من الكرامة والحقوق
والرفق في مجتمعاتٍ تدّعي أنها مسلمة، فبديهيّ ألا تجد بقية
الكائنات أيضًا ذلكم الحد الأدنى من الرفق الذي أمر به الشرع
الحنيف معها.. فالله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا به.

**هذا، وسلام على جميع الأنبياء والمرسلين،
والحمد لله رب العالمين.**

تم بحمد الله تعالى.

* حاشية [٣]

٥٠ ص (١١٢) - ٥١. «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اختلفُوا فيهٗ وَمَا اختلف فيهٗ إِلَّا الَّذِينَ أوتوهٗ من بعد ما جاءتهمُ البَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اختلفوا فيهٗ من الحقِّ يُؤذِنُهُ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (البقرة: ٢١٣). هذه هي القصة.. كان الناس أمة واحدة. على نهج واحد، وتصور واحد. وقد تكون هذه إشارة إلى حالة المجموعة البشرية الأولى الصغيرة من أسرة آدم وحواء وذريتهم، قبل اختلاف التصورات والاعتقادات. فالقرآن يقرر أن الناس من أصل واحد. وهم أبناء الأسرة الأولى: أسرة آدم وحواء. وقد شاء الله أن يجعل البشر جميعاً نتاج أسرة واحدة صغيرة، ليقرر مبدأ الأسرة في حياتهم، وليجعلها هي اللبنة الأولى. وقد غبر عليهم عهد كانوا فيه في مستوى واحد واتجاه واحد وتصور واحد في نطاق الأسرة الأولى. حتى نمت وتعددت وكثر أفرادها، وتفرقت في المكان، وتطورت معاشهم؛ وبرزت فيهم الاستعدادات المكونة المختلفة، التي فطرهم الله عليها لحكمة يعلمها، ويعلم ما وراءها من خير للحياة في التنوع في الاستعدادات والطاقات والاتجاهات. عندئذ اختلفت التصورات وتباينت وجهات النظر، وتعددت المناهج، وتنوعت المعتقدات.. وعندئذ بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.. {أنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه؛.. وهنا تبين تلك الحقيقة الكبرى.. إن من طبيعة الناس أن يختلفوا؛ لأن هذا الاختلاف أصل من أصول خلقهم؛ يحقق حكمة عليا من استخلاف هذا الكائن في الأرض.. إن هذه الخلافة تحتاج إلى وظائف متنوعة، واستعدادات شتى من ألوان متعددة؛ كي تتكامل جميعها وتتناسق، وتؤدي دورها الكلي في الخلافة والعمارة، وفق التصميم الكلي المقدر في علم الله. فلا بد إذن من تنوع في المواهب يقابل تنوع تلك الوظائف؛ ولا بد من اختلاف في الاستعدادات يقابل ذلك الاختلاف في الحاجات.. «ولا يزالون مختلفين - إلا من رحم ربك - ولذلك خلقهم..» هذا الاختلاف في الاستعدادات والوظائف ينشئ بدوره اختلافًا في التصورات والاهتمامات والمناهج والطرائق.. ولكن الله يحب أن تبقى هذه الاختلافات المطلوبة الواقعة داخل إطار واسع عريض يسعها جميعاً حين تصلح وتنسجم.. هذا الإطار هو إطار التصور الإيماني الصحيح. الذي يفسح حتى يضم جوانحه على شتى الاستعدادات وشتى المواهب وشتى الطاقات؛ فلا يقتلها ولا يكبحها؛ ولكن ينظمها وينسقها ويدفعها في طريق الصلاح. ومن ثم لم يكن بد أن يكون هناك ميزان ثابت يغيء إليه المختلفون؛ وحكم عدل يرجع إليه المختصمون؛ وقول فضل ينتهي عنده الجدل، ويؤبب الجميع منه إلى اليقين: {فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه}. ولا بد أن نقف عند قوله تعالى {بالحق}.. فهو القول الفصل بأن الحق هو ما جاء به الكتاب؛ وأن هذا الحق قد أنزل ليكون هو الحكم العدل، والقول الفصل، فيما عداه من أقوال الناس وتصوراتهم ومناهجهم وقيمهم وموازينهم.. لا حق غيره. ولا حكم معه. ولا قول بعده. وبغير هذا الحق الواحد الذي لا يتعدى؛ وبغير تحكيمه في كل ما يختلف فيه الناس؛ وبغير الانتهاء إلى حكمه بلا محاكمة ولا اعتراض.. بغير هذا كله لا يستقيم أمر هذه الحياة؛ ولا ينتهي الناس من الخلاف والفرقة؛ ولا يقوم على الأرض السلام؛ ولا يدخل الناس في السلم بحال.

ولهذه الحقيقة قيمتها الكبرى في تحديد الجهة التي يتلقى منها الناس تصوراتهم وشرائعهم؛ والتي ينتهون إليها في كل ما يشجر بينهم من خلاف في شتى صور الخلاف.. إنها جهة واحدة لا تتعدد هي التي أنزلت هذا الكتاب بالحق؛ وهو مصدر واحد لا يتعدى هو هذا الكتاب الذي أنزله الله بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.. وهو كتاب واحد في حقيقته، جاء به الرسل جميعاً. فهو كتاب واحد في أصله، وهي ملة واحدة في عمومها، وهو تصور واحد في قاعدته: إنه واحد، ورب واحد، ومعبود واحد، ومشروع واحد لبني الإنسان.. ثم تختلف التفصيلات بعد ذلك وفق حاجات الأمم والأجيال؛ ووفق أطوار الحياة والإرتباطات؛ حتى تكون الصورة الأخيرة التي جاء بها الإسلام، وأطلق الحياة تنمو في محيطها الواسع الشامل بلا عوائق. بقيادة الله ومنهجه وشرعيته الحية المتجددة في حدود ذلك المحيط

الشامل الكبير. وهذا الذي يقرره القرآن في أمر الكتاب هو النظرية الإسلامية الصحيحة في خط سير الأديان والعقائد.. كل نبي جاء بهذا الدين الواحد في أصله، يقوم على القاعدة الأصلية: قاعدة التوحيد المطلق.. ثم يقع الانحراف عقب كل رسالة، وتتراكم الخرافات والأساطير، حتى يبعد الناس نهائياً عن ذلك الأصل الكبير، وهنا تتهيء رسالة جديدة تجدد العقيدة الأصلية، وتفتي ما علق بها من الانحرافات، وتراعي أحوال الأمة وأطوارها في التفاصيل.. وهذه النظرية أولى بالإتياع من نظريات الباحثين في تطور العقائد من غير المسلمين، والتي كثيراً ما يتأثر بها باحثون مسلمون، وهم لا يشعرون، فيقيمون بحوثهم على أساس التطور في أصل العقيدة وقاعدة التصور، كما يقول المستشرقون وأمثالهم من الباحثين الغربيين الجاهليين! وهذا الثابت في أصل التصور الإيماني، هو الذي يتفق مع وظيفة الكتاب الذي أنزله الله بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، في كل زمان، ومع كل رسول، منذ أقدم الأزمان. ولم يكن بد أن يكون هناك ميزان ثابت يفيء إليه الناس، وأن يكون هناك قول فصل ينتهون إليه. ولم يكن بد كذلك أن يكون هذا الميزان من صنع مصدر آخر غير المصدر الإنساني، وأن يكون هذا القول قول حاكم عدل لا يتأثر بالهوى الإنساني، ولا يتأثر بالقصور الإنساني، ولا يتأثر بالجهل الإنساني! وإقامة ذلك الميزان الثابت تقتضي علماً غير محدود. علم ما كان وما هو كائن وما سيكون. علمه كله لا مقيداً بقيود الزمان التي تفصل الوجود الواحد إلى ماضٍ وحاضر ومستقبل، وإلى مستقبين ومظنون ومجهول، وإلى حاضر مشهود ومغيب مخبوء.. ولا مقيداً بقيود المكان التي تفصل الوجود الواحد إلى قريب وبعيد، ومنظور ومحجوب، ومحسوس وغير محسوس.. في حاجة إلى إله يعلم ما خلق، ويعلم من خلق.. ويعلم ما يصلح وما يصلح حال الجميع. وإقامة ذلك الميزان في حاجة كذلك إلى استعلاء على الحاجة، واستعلاء على النقص، واستعلاء على الفناء، واستعلاء على القوت، واستعلاء على الطمع، واستعلاء على الرغبة والرهبة.. واستعلاء على الكون كله بما فيه ومن فيه.. في حاجة إلى إله، لا أرب له، ولا هوى، ولا لذة، ولا ضعف في ذاته - سبحانه - ولا قصور! أما العقل البشري فيحسبه أن يواجه الأحوال المتطورة، والظروف المتغيرة، والحاجات المتحددة؛ ثم يوائم بينها وبين الإنسان في لحظة عابرة وظرف موقوت. على أن يكون هناك الميزان الثابت الذي يفيء إليه، فيدرك خطأه وصوابه، وغيه ورشاده، وحقه وباطله، من ذلك الميزان الثابت.. وبهذا وحده تستقيم الحياة. ويضمن الناس إلى أن الذي يسوسهم في النهاية إله! إن الكتاب لم ينزل بالحق ليمحو فوارق الاستعدادات والمواهب والطرائق والوسائل. إنما جاء ليحكم الناس إليه.. وإليه وحده.. حين يختلفون.

ومن شأن هذه الحقيقة أن تنشئ حقيقة أخرى تقوم على أساسها نظرة الإسلام التاريخية: إن الإسلام يضع {الكتاب} الذي أنزله الله {بالحق} ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.. يضع هذا الكتاب قاعدة للحياة البشرية. ثم تمضي الحياة. فلما اتفقت مع هذه القاعدة، وظلت قائمة عليها، فهذا هو الحق. وإما خرجت عنها وقامت على قواعد أخرى، فهذا هو الباطل.. هذا هو الباطل ولو ارتضاه الناس جميعاً. في فترة من فترات التاريخ. فالناس ليسوا هم الحكم في الحق والباطل. وليس الذي يقرره الناس هو الحق، وليس الذي يقرره الناس هو الدين. إن نظرة الإسلام تقوم ابتداءً على أساس أن فعل الناس لشيء، وقولهم لشيء، وإقامة حياتهم على شيء.. لا تحيل هذا الشيء حقاً إذا كان مخالفاً للكتاب؛ ولا تجعله أصلاً من أصول الدين؛ ولا تجعله التفسير الواقعي لهذا الدين؛ ولا تبرهه لأن أجيالاً متعاقبة قامت عليه.. وهذه الحقيقة ذات أهمية كبرى في عزل أصول الدين عما يدخله عليها الناس! وفي التاريخ الإسلامي مثلاً وقع انحراف، وظل ينمو وينمو.. فلا يقال: إن هذا الانحراف متى وقع وقامت عليه حياة الناس فهو إذن الصورة الواقعية للإسلام! كلا! إن الإسلام يظل بريئاً من هذا الواقع التاريخي. ويظل هذا الذي وقع خطأ وانحرافاً لا يصلح حجة ولا سابقة؛ ومن واجب من يريد استئناف حياة إسلامية أن يبلغه ويبطله، وأن يعود إلى الكتاب الذي أنزله الله بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.. ولقد جاء الكتاب.. ومع ذلك كان الهوى يغلب الناس من هناك ومن هناك؛ وكانت المطامع والرغائب والمخاوف والضلالات تبعث الناس عن قبول حكم الكتاب، والرجوع إلى الحق الذي يردهم إليه: {وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات.. بغياً بينهم..} فالبغي.. بغى الحسد. وبغى الطمع.

وبغي الحرص. وبغي الهوى.. هو الذي قاد الناس إلى المضي في الاختلاف على أصل التصور والمنهج؛ والمضي في التفرق واللجاج والعناد. وهذه حقيقة.. فما يختلف اثنان على أصل الحق الواضح في هذا الكتاب، القوي الصادع المشرق المنير.. ما يختلف اثنان على هذا الأصل إلا وفي نفس أحدهما بغي وهوى، أو في نفسيهما جميعاً.. فأما حين يكون هناك إيمان فلا بد من التقاء واتفاق: {فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه}.. هداهم بما في نفوسهم من صفاء، وبما في أرواحهم من تجرد، وبما في قلوبهم من رغبة في الوصول إلى الحق. وما أيسر الوصول حينئذ والاستقامة: {والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم}.. هو هذا الصراط الذي يكشف عنه ذلك الكتاب. وهو هذا المنهج الذي يقوم على الحق ويستقيم على الحق. ولا تتقاذفه الأهواء والشهوات، ولا تتلاعب به الرغاب والتزوات.. والله يختار من عباده لهذا الصراط المستقيم من يشاء، ممن يعلم منهم الاستعداد للهدى والاستقامة على الصراط؛ أولئك يدخلون في السلم، وأولئك هم الأعلون، ولو حسب الذين لا يزنون بميزان الله أنهم محرومون، ولو سخروا منهم كما يسخر الكافرون من المؤمنين!« [سيد قطب، في ظلال القرآن].



* حول المؤلف

راكبان آل عايض

- كاتب وباحث إسلامي، وناشط حقوقي وسياسي معارض من جزيرة العرب، أو ما يسمى غصبًا وعدوانًا بـ«السعودية».
- يقيم في المملكة المتحدة (بريطانيا) منذ سنوات، وينشط من هناك.

* نشر له عدة كتب، أبرزها:

- كتاب: [مقالة السعي المقدس] (٢٠٢٦)
- كتاب: [المرجع الأعلى في الإسلام: نحو إعادة مركزية وهيمنة القرآن]. (٢٠٢٦)
- كتاب: [مفهوم الملك في القرآن: بين التمكين المشروط المؤقت والتملك المطلق الدائم]. (٢٠٢٥)
- كتاب: [المرأة المسلمة بين تحرير الوحي وقيود الفهم]. (٢٠٢٥)
- كتاب: [نحو دولة مدنية شورية جمهورية اتحادية في جزيرة العرب، رؤية للإصلاح والتغيير السياسي في ضوء المبادئ الإسلامية]. (٢٠٢٥)
- كتيب: [التغيير الذي نريد: جذري، شامل، ومنهجي] (٢٠٢٥)

مقالة

السعي المقدس

"إن السعي نحو أن يكون الناس عبادًا لله، بألا يكونوا عبيدًا لغيره، هو السعي المقدس الذي نعنيه؛ وهو سعي نحو قيم الإسلام من حرية ومساواة وعدل وشورى وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر ونصرة للمستضعفين ووقوف في وجه الظالمين، إلخ.

إن هذا هو ما نعتبره السعي المقدس الذي لا يبالي الإنسان إن مات في سبيله؛ لأنه سبيل الله.

ولأن جوهر توحيد الله يتمثل في الحرية، وذلك بالكفر بكل إله سوى الله، فشهادة أن «لا إله إلا الله» إنما تعني، في جوهرها، أنه لا مستحق للتسليم الكامل والانقياد التام والطاعة المطلقة سوى الله، تبارك وتعالى، وحده، وأن كل من ادّعى لنفسه ذلك الحق فهو متآله كافر بالله، ومن سلّم له بذلك فقد أشرك بالله وضلّ ضلالًا بعيدًا: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَهُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} ومن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ قَلَّ مَلَأًا بَعِيدًا} [النساء: ١١٦]."

راكان آل عايزر

1447 هـ | 2026 م